الينابيع

الدكتور حمدي إبراهيم النورج

جَزاءُ الإحسان

وقصص أخرى

الشركة المصرية العالمية للنشر
لونجمان



جَزاءُ الإحسان

وقصص أخرى

إشراف : وجدي رزق غالي

١٠ أ، شارع حسين واصف، ميدان المساحة، الدقي، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون

ص.ب : ١١-٩٢٣٢

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ٢٠١١

رقم الايداع ٤٧٧٠ / ٢٠١١

الترقيم الدولي ٩ - ١٢٨٥ - ١٦ - ٩٧٧ ISBN

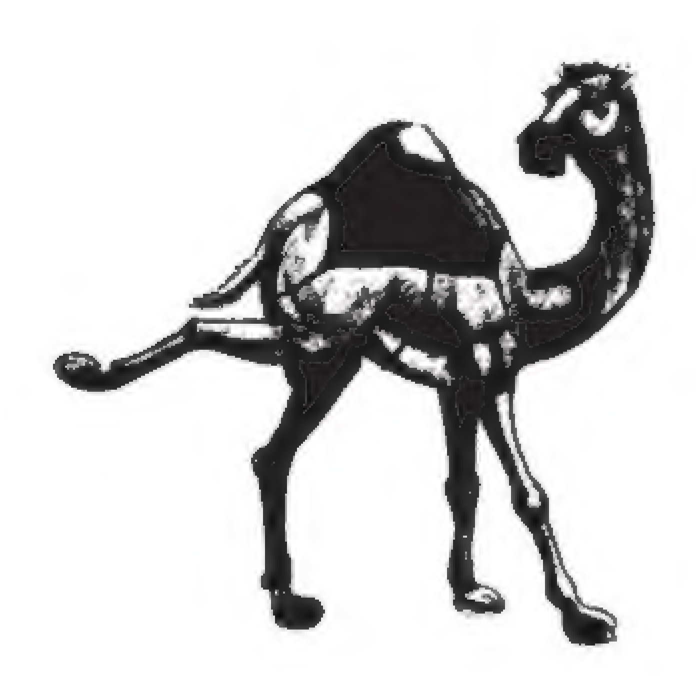
رسوم : محمد نبيل عبد العزيز

طبع بمطابع النوبار

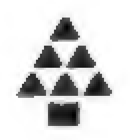


جَزاءُ الإحسان
وقصص أخرى

الدكتور حمدي إبراهيم النورج







مكتبة لبنان ناشرون

وتُريدُ
أَنْ تَقْتُلَني؟

لَمّا اسْتَبانَ الأَمْرُ لِخُلَفاءِ بَنِي العَبّاسِ، ورَغِبَ الخَليفَةُ العَبّاسِيُّ أَبُو العَبّاسِ السّفّاحُ في أَنْ يَتَزَوَّجَ، طَلَبَ إلى مُحَمَّدِ بْنِ سَلَمَةَ بْنِ يَعْقوبَ أَنْ يُزَوِّجَهُ أُخْتَهُ؛ فَوافَقَ.

وقَدِ احْتَلَّتِ الزَّوْجَةُ مِنْ نَفْسِهِ مَكانَةً كَبيرَةً، حَتّى إنَّهُ أَقْسَمَ أَلّا يَتَزَوَّجَ عَلَيْها، وأَلّا يَتَمَتَّعَ بِالجَواري مُطْلَقًا، واتَّخَذَها مُسْتَشارًا لَهُ في كُلِّ أَمْرٍ.

وفي يَوْمٍ مِنْ أَيّامِ الخِلافَةِ انْعَقَدَ المَجْلِسُ بَيْنَ الخَليفَةِ وخالِدِ بْنِ صَفْوانَ وهُوَ أَحَدُ جُلَساءِ الخَليفَةِ المَعْروفينَ بِالدَّهاءِ والمَكْرِ، والّذي قالَ:

«يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، قَدْ خَطَرَ في ذِهْني أَمْرُكَ وسَعَةُ مُلْكِكَ، وقَدِ

اقْتَصَرْتَ عَلى امْرَأَةٍ واحِدَةٍ، فإِنْ مَرِضَتْ مَرِضتَ، وإِنْ تَأَلَّمَتْ أَلِمْتَ، وحَرَمْتَ نَفْسَكَ الجَوارِيَ، والتَّمَتُّعَ بِما طابَ مِنْهُنَّ، فإِنَّ مِنْهُنَّ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ الطَّويلَةَ الحَسْناءَ، والرَّقيقَةَ البَيْضاءَ، ولَوْ رَأَيْتَ ذَواتَ الأَلْسُنِ العَذْبَةِ، والأَشْكالِ الجَميلَةِ لَرَأَيْتَ شَيْئًا عَجَبًا.»

وأَخَذَ ابْنُ صَفْوانَ يُعيدُ على الخَليفَةِ مَقالَتَهُ كُلَّما رَآهُ وانْفَرَدَ بِهِ، حَتّى عادَ في يَوْمٍ لِاسْتِئْنافِ حَديثِهِ فقالَ:

«وأَيْنَ أَنْتَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ مِنْ بَناتِ الأَحْرارِ اللَّواتي سَحَرْنَ النّاظِرينَ بِما عِنْدَهُنَّ مِنْ جَمالٍ؟»

وجَعَلَ يُطيلُ في الوَصْفِ بِحُسْنِ لَفْظِهِ، وما انْطَوى عَلَيْهِ مِنْ إِشارَةٍ، فَلَمّا فَرَغَ قالَ لَهُ أَبو العَبّاسِ وقَدِ اسْتَحْسَنَ حَديثَهُ: «وَيْحَكَ يا خالِدُ! واللهِ ما سَمِعْتُ قَطُّ كَلامًا أَحْسَنَ مِمّا سَمِعْتُهُ، وإِنَّكَ لَخَبيرٌ بِأُمورِ النِّساءِ، فَأَعِدْ عَلَيَّ كَلامَكَ.»

فأَعادَ عَلَيْهِ خالِدٌ الكَلامَ أَحْسَنَ مِمّا ابْتَدَأَهُ ثُمَّ انْصَرَفَ.

وبَقِيَ أَبو العَبّاسِ يُفَكِّرُ فيما سَمِعَ مِنْهُ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أُمُّ سَلَمَةَ

امْرَأَتُهُ، وكانَتْ تَحْرِصُ عَلى سُرورِهِ، ومُوافَقَتِهِ في جَميعِ ما أَرادَهُ فقالَتْ لَهُ: «إِنّي لَأُنْكِرُكَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، فَهَلْ حَدَثَ أَمْرٌ تَكْرَهُهُ، أَوْ أَتاكَ خَبَرٌ سَبَّبَ لَكَ الحُزْنَ؟»

قالَ: «لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ!»

قالَتْ: «فَما قِصَّتُكَ؟»

فَجَعَلَ يَبْتَعِدُ عَنْها، ولَكِنَّها أَلَحَّتْ عَلَيْهِ في السُّؤالِ حَتّى أَخْبَرَها بِما قالَهُ خالِدُ بْنُ صَفْوانَ لَهُ. فَخَرَجَتْ مِنْ عِنْدَهُ غاضِبَةً؛ وأَرْسَلَتْ إِلى خالِدٍ بَعْضَ خَدَمِها وأَمَرَتْهُمْ أَنْ يَضْرِبوهُ وَأَلّا يَتْرُكوا في جَسَدِهِ عُضْوًا صَحيحًا.

انْصَرَفَ خالِدٌ إِلى مَنْزِله مَسْرورًا بِما رَآهُ مِنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ وَاسْتِمْتاعِهِ بِما أَلْقاهُ إِلَيْه، وتَصَوَّرَ أَنَّ جائِزَتَهُ سَتَأْتيهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ حَتّى صارَ إِلَيْه أولَئِكَ الخَدَمُ، فَلَمّا رَآهُمْ قَدْ أَقْبَلوا نَحْوَهُ، تَأَكَّدَ مِنْ نَيْلِ الجائِزَةِ، حَتّى وَقَفوا عَلَيْهِ (وَصَلوا عِنْدَهُ)، فَسَأَلوا عَنْهُ، فَقالَ: «أَنا خالِد.» فَبادَرَهُ أَحَدُهُمْ بِعَصًا غَليظَةٍ كانَتْ مَعَهُ، وما زالَ يَضْرِبُهُ حَتّى اسْتَطاعَ الفِرارَ إِلى المَنْزِلِ المُجاوِرِ لَهُ، وأَغْلَقَ البابَ عَلَيْهِ، وامْتَنَعَ

عَنِ الخُروجِ أَيّامًا، وَوَقَعَ في نَفْسِهِ أَنَّه أُتِيَ مِنْ قِبَلِ أُمِّ سَلَمَةَ، وأَنَّها قَدِ انْتَقَمَتْ لِنَفْسِها، فَنَدِمَ على ما بَدَرَ مِنْهُ.

وطَلَبَهُ أَبُو العَبّاسِ طَلَبًا شَديدًا، فَلَمْ يَشْعُرْ ذاتَ يَوْمٍ إلّا بِقَوْمٍ مِنْ حَرَسِ الخَليفَةِ قَدْ هَجَموا عَلَيْه قائِلينَ: «أَجِبْ أَميرَ المُؤْمِنين.» فَأَيْقَنَ بِالهَلاكِ.

ولَمّا وَصَلَ الدّارَ أَشارَ إِلَيْهِ بِالجُلوسِ، ونَظَرَ فَإِذا خَلْفَ ظَهْرِهِ بابٌ عَلَيْهِ سِتارَةٌ قَدْ أُنْزِلَتْ، وحَرَكَةٌ خَلْفَها.

قال أَبُو العَبّاسِ: «يا خالِدُ، لَمْ أَرَكَ مُنْذُ ثَلاثِ لَيالٍ.»

قالَ: «كُنْتُ مَريضًا، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ.»

قالَ أَبُو العَبّاسِ: «وَيْحَكَ! إِنَّكَ وَصَفْتَ لي في آخِرِ لِقاءٍ مِنْ أَمْرِ النِّساءِ والجَواري ما لَمْ يَطْرُقْ سَمْعي قَطُّ، فَأَعِدْهُ عَلَيَّ.»

قَالَ خالِدٌ: «نَعَمْ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، أَعْلَمْتُكَ أَنَّ العَرَبَ أَخَذَتِ الضَّرَّةَ (وهي الزَّوْجَةُ الثّانِيَةُ) مِنَ الضَّرَرِ، وأَنَّ أَحَدَهُمْ ما تَزَوَّجَ مِنَ النِّساءِ أَكْثَرَ مِنْ واحِدَةٍ إِلّا وكانَ في عَناءٍ.»

قالَ أَبو العَبّاسِ: «كَلّا، لَمْ يَكُنْ هَذا الحَديثَ!»

قَالَ خالِدٌ: «بَلى، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، وأَخْبَرْتُكَ أَنَّ الثَّلاثَ مِنَ النِّساءِ أَشَدُّ حُزْنًا وهَمًّا.»

قالَ أَبُو العَبّاسِ: «لَمْ أَسْمَعْ مِنْكَ هَذا الكَلامَ.»

قال خَالِدٌ: «وأَخْبَرْتُكَ أَنَّ الأَرْبَعَ مِنَ النِّساءِ شَرٌّ لِصاحِبِهِنَّ.»

قال أَبُو العَبّاسِ: «واللهِ، ما سَمِعْتُ هَذا الكَلامَ مِنْكَ وَلا مِنْ غَيْرِكَ قَبْلَ هَذا الوَقْتِ.»

قَالَ خالِدٌ: «بَلى.»

قالَ أَبُو العَبّاسِ: «أَوَ تُكَذِّبُني؟»

قالَ خالِدٌ: «وتُريدُ أَنْ تَقْتُلَني، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ؟»

سَمِعَ خَالِدٌ الضَّحِكَ مِنْ وَراءِ السِّتارَةِ وصَوْتًا يَقولُ لَهُ: «صَدَقْتَ، واللهِ، يا عَمّاهُ بِهَذا! حَدَّثْتَ أَميرَ المُؤْمِنينَ ولَكِنَّهُ بَدَّلَ وغَيَّرَ.»

فَقالَ أَبو العَبّاسِ: «ما لَكَ، قاتَلَكَ اللهُ؟»

فَاسْتَأْذَنَهُ خالِدٌ وخَرَجَ، وقَدْ أَيْقَنَ بِالحَياةِ، فَما شَعَرَ إِلّا بِرُسُلِ أُمِّ سَلَمَةَ قَدْ صاروا إِلَيْهِ ومَعَهُمْ عَشَرَةُ آلافِ دِرْهَمٍ.

أَبو الجَيْش واليَتيمُ

أَنْشَأَ أَحْمَدُ بْنُ طولونَ بِمِصْرَ دَوْلَةً عُظْمى سَمّاها الدَّوْلَةَ الطّولونِيَّةَ، وجَعَلَ نَفْسَهُ أَميرًا عَلَيْها، وكانَ مِنْ عادَةِ ابْنِ طولونَ أَنْ يَتَفَقَّدَ رَعاياهُ لَيْلًا، وأَنْ يَنْظُرَ في كُلِّ الأماكِنِ والنَّواحي. وبَيْنَما هُوَ يَسيرُ في إِحْدى لَياليهِ إِذْ رَأى طِفْلًا مَطْروحًا بِجانِبِ سُكْنَتِه، فالْتَقَطَهُ ورَبّاهُ، وأَحْسَنَ إِلَيْهِ، وعَلَّمَهُ، وأَطْلَقَ عَلَيْهِ «أَحْمَدَ اليَتيمَ».

فَلَمّا كَبِرَ ونَشَأَ وتَهَذَّبَ كانَ أَكْثَرَ النَّاسِ ذَكاءً وفِطْنَةً، وأَحْسَنَهُمْ صورَةً وزِيًّا. ولَمّا حَضَرَتِ الوَفاةُ أَحْمَدَ بْنَ طولونَ دَعا وَلَدَهُ أَبا الجَيْشِ خُمارَوَيْه، وأَوْصاهُ خَيْرًا بِـ «أَحْمَدَ اليَتيمِ».

ولَمّا ماتَ ابْنُ طولونَ أَحْضَرَهُ الأَميرُ أَبو الجَيْشِ خُمارَوَيْهِ إِلَيْهِ وقالَ لَهُ:

«أَنْتَ عِنْدي بِمَكانَةٍ أَرْعاكَ بِها، لَكِنَّ عادَتي أَنْ آخُذَ العَهْدَ عَلى كُلِّ مَنْ أَصْرِفُهُ إِلى شَيْءٍ أَلّا يَخونَني.»

ثُمَّ حَكَّمَهُ في أَمْوالِهِ، وقَدَّمَهُ إِلَيْهِ في أَشْغالِهِ، وأَنابَهُ في بَعْضِ أَعْمالِهِ وأَسْفارِهِ، فَصارَ أَحْمَدُ اليَتيمُ مُسْتَحْوِذًا عَلى المَقامِ، حاكِمًا على جَميعِ الحاشِيَةِ الخاصِّ والعامِّ.

وقَدْ عَهِدَ الأَميرُ إِلى أَحْمَدَ الكَثيرَ مِنَ القَضايا المُهِمَّةِ، والأُمورِ العَظيمَةِ. واعْتَمَدَ عَلَيْه في أُمورِ بَيْتِهِ أَيْضًا.

قالَ لَهُ يَوْمًا: «يا أَحْمَدُ، اِمْضِ إِلى الحُجْرَةِ الفُلانِيَّةِ، فَفي المَجْلِسِ الَّذي أَجْلِسُ فيهِ سُبْحَةٌ مِنَ الجَوْهَرِ فَأْتِني بِها.» فَمَضى أَحْمَدُ، فَلَمّا دَخَلَ الحُجْرَةَ وَجَدَ جارِيَةً مِنْ مُغَنِّياتِ الأَميرِ وحَظاياهُ مَعَ شابٍ مِنَ الفَرّاشينَ (الخادِمينَ) مِمَّنْ هُوَ إِلى الأَميرِ بِمَجْلِسٍ قَريبٍ يَتَقاسَمانِ مالًا، فَلَمّا رَأَياهُ خَرَجَ الفَتى مُسْرِعًا وجاءَتِ الجارِيَةُ إِلى أَحْمَدَ وعَرَضَتْ عَلَيْهِ المالَ، ودَعَتْهُ إِلى أَنْ يتقاسَمَ المالَ مَعَهُما، فَقالَ لَها:

«مَعاذَ اللهِ أَنْ أَخونَ الأَميرَ وقَدْ أَحْسَنَ إِلَيَّ، وأَخَذَ العَهْدَ عَلَيَّ.»

ثُمَّ تَرَكَها وأَخَذَ السُّبْحَةَ وانْصَرَفَ إِلى الأَميرِ وسَلَّمَها إِلَيْهِ.

وبَقِيَتِ الجارِيَةُ شَديدَةَ القَلَقِ، وأَقامَتْ أَيّامًا عِنْدَ الأَميرِ ولَمْ تَجِدْ أَنَّهُ قَدْ تَغَيَّرَ عَلَيْها، أَوِ انصْرَفَ في بَيْتِهِ عَنْها. وحَدَثَ أَنِ اشْتَرى الأَميرُ جارِيَةً أُخْرى، وقدَّمَها على جَواريهِ وغَمرَها بِعَطاياهُ، واشْتَغَلَ بِها عَمَّنْ سِواها، وأَعْرَضَ بِها عَنْ كُلِّ مَنْ عِنْدَهُ حَتّى كادَ لا يَذْكُرُ جارِيَةً غَيْرَها.

وكانَ الأَميرُ في أَوَّلِ أَمْرِهِ شَغوفًا بِالجارِيَةِ الخائِنَةِ، لا يَحْلو مُقامٌ لَهُ إِلّا بِجِوارِها، فَلَمّا أَعْرَضَ عَنها اشْتِغالًا وشَغَفًا بِالجارِيَةِ الجَديدَةِ، وَقَعَ في ظَنِّها أَنْ يَكونَ أَحْمَدُ اليَتيمُ قَدْ ذَكَرَها عِنْدَ الأَميرِ، وذَكَرَ خَبَرَها مَعَ الفَتى الفَرّاشِ، فَكَبُرَ الأَمْرُ عَلى نَفْسِها، وأَقْسَمَتْ لَتَأْخُذَنَّ بِحَقِّها مِنْ أَحْمَدَ اليَتيمِ جَزاءَ ما فَعَلَ.

ثُمَّ إِنَّها ارْتَدَتْ مِنَ الكَآبَةِ جِلْبابَها، وأَحْكَمَتْ مِنْ فَصيحِ القَوْلِ كَيْدَها، وأَبانَتْ في مَلامِحِ وَجهِها ضَعْفَها وحُزْنَها، ودَخَلَتْ عَلى الأَميرِ قائِلَةً:

«مَوْلاي.. لا يَسَعُني المُقامُ في قَصْرِكَ مَعَ هَذا الخائِنِ اللَّئيمِ.» سَأَلَها الأَميرُ: «ما خَطْبُكِ، يا جارِيَةُ؟ وما الَّذي حَمَلَكِ على ذَلِكَ؟»

قالَتْ: «لَقَدْ حَرَّضَني أَحْمَدُ عَلى سَرِقَتِك، يا سَيِّدي. ولَوْلا بَقِيَّةٌ مِنْ إيمانٍ وخَوْفٍ مِنَ الرَّحْمَنِ، وحِرْصٍ على بَيْتِ الأَميرِ، لَفَعَلْتُ!»

فَلَمّا سَمِعَ الأَميرُ ذَلِكَ اسْتَشاطَ غَضَبًا وهَمَّ في الحالِ بِقَتْلِ أَحْمَدَ اليَتيمِ، ثُمَّ عاوَدَهُ عَقْلُهُ، وقالَ:

«الظُّلْمُ أَنْ أَحْكُمَ في غَضَبٍ.»

فتَأَنّى في قَرارِهِ، ودَبَّرَ أَمْرَهَ، واسْتَدْعى خادِمًا يَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وقالَ لَهُ: «إذا أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ إِنْسانًا ومَعَهُ طَبَقٌ مِنْ ذَهَبٍ، وقُلْتُ لَكَ على لِسانِهِ امْلَأْ هَذا الطَّبَقَ مِسْكًا، فَاقْتُلْ ذَلِكَ الإِنْسانَ واجْعَلْ رَأْسَهُ في الطَّبَقِ وأَحْضِرْهُ إِلَيَّ.»

وانْعَقَدَ مَجْلِسُ الأَميرِ لِلشُّرْبِ والتَّصافي، وأَخَذَتِ الجَواري يَضْرِبْنَ العودَ، وانْطَلَقَتْ ضَحَكاتُ المَجْلِسِ تُزَيِّنُ المَكانَ، حَتّى صَفَّقَ الأَميرُ بِيَدَيْهِ مُسْتَدْعِيًا أَحْمَدَ اليَتيمَ وطَلَبَ إِلَيْهِ أَنْ يَذْهَبَ إلى خادِمِ الأَميرِ في مَكانِ كَذا لِيَمْلَأَ الطَّبَقَ مِسْكًا، فَانْطَلَقَ أَحْمَدُ اليَتيمُ في رَدَهاتِ (صالاتِ) القَصْرِ وُصولًا إلى الخادِمِ.



اجْتازَ في طَرِيقِهِ المُغَنّينَ وبَقِيَّةَ النُّدَماءِ والخَواصِّ، فَقاموا إِلَيْهِ وسَأَلوهُ الجُلوسَ مَعَهُمْ، فقالَ:

«إِنّي ماضٍ في حاجَةٍ لِلْأَميرِ أَمَرَني بِإِحْضارِها في هَذا الطَّبَقِ.»

قالوا: «أَرْسِلْ مَنْ يَنوبُ عَنْكَ في إِحْضارِها وخُذْها أَنْتَ وادْخُلْ بِها على الأَميرِ.»

أَدارَ «أَحْمَدُ اليَتيمُ» عَيْنَيْهِ فَلَمْ يَجِدْ إِلّا الفَرّاشَ الَّذي شارَكَ الجارِيَةَ سَرِقَةَ خُمارَوَيْهِ قَبْلَ ذَلِكَ فَأَعْطاهُ الطَّبَقَ، وقالَ لَهُ:

«امْضِ إِلى فُلانٍ الخادِمِ وقُلْ لَهُ: «يَقولُ لَكَ الأَميرُ امْلَأْ هَذا الطَّبَقَ مِسْكًا.»»

ومَضى ذَلِكَ الفَرّاشُ إِلى الخادِمِ، فَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، فَقَتَلَهُ وقَطَعَ رَأْسَهُ وغَطّاهُ وجَعَلَهُ في الطَّبَقِ وأَقْبَلَ بِهِ فَناوَلَهُ لِأَحْمَدَ اليَتيمِ، فَأَخَذَهُ أَحْمَدُ ولَيْسَ عِنْدَهُ عِلْمٌ - بِالمَوْجودِ في باطِنِ الطَّبَقِ، فَلَمّا دَخَلَ بِهِ عَلى الأَميرِ كَشَفَهُ وتَأَمَّلَهُ وقالَ:

«ما هَذا؟»

قَصَّ عَلَيْهِ أَحْمَدُ الخَبَرَ وقُعودَهُ مَعَ المُغَنّينَ وبَقِيَّةِ النُّدَماءِ، وما

كانَ مِنْ إِنْفاذِ الأَمْرِ، وإِرْسالِهِ مَعَ الفَرّاشِ، وأَنَّهُ لا عِلْمَ عِنْدَهُ غَيْرُ ما ذَكَرَهُ.

قال خُمارَوَيْهِ: «أَتَعْرِفُ، يا أَحْمَدُ، لا بُدَّ أَنْ يَكونَ لِهَذا الفَرّاشِ خَبَرٌ يَسْتَوْجِبُ بِهِ ما حَدَثَ لَهُ؟»

قالَ أحْمَدُ: «إِنَّ الَّذي وَقَعَ لَهُ هو جَزاؤه لِما ارْتَكَبَهُ مِنَ الخِيانَةِ، يا مَوْلاي.»

وأَخَذَ يُحَدِّثُهُ بما كانَ مِنْ أَمْرِهِ مَعَ الجارِيَةِ. فَدَعا الأَميرُ أَبو الجَيْشِ الجارِيَةَ حَتّى جَعَلَها تُقِرُّ بالأَمْرِ، فَأَقَرَّتْ بِصِحَّةِ ما ذَكَرَهُ أَحْمَدُ، فَأَمَرَ بِعِقابِها أَشَدَّ العِقابِ.

وزادَتْ مَكانَةُ أَحْمَدَ عِنْدَ الأَميرِ وعَلَتْ مَنْزِلَتُهُ وضاعَفَ إِحْسانَهُ إِلَيْهِ، فَقَدْ حَفِظَ الأَميرَ وصانَ عَهْدَهُ مَعَهُ.

بَيْنَ الأَصْمَعِيِّ وصاحِبِه

حَكى الأَصْمَعِيُّ:

فَقَدْتُ في بَعْضِ الأَيّامِ رَجُلًا كَريمًا، عَهِدْتُهُ مِنْ وَقْتٍ، وارْتَحْتُ في الجُلوسِ إِلَيْهِ، وقَدْ كُنْتُ أَغْشاهُ (آتيهِ) أَيْضًا لِكَرَمِهِ وفَضْلِهِ، وما دَخَلْتُ عَلَيْهِ إِلّا وأَوْصَلَني. فَلَمّا ذَهَبْتُ إِلَيْهِ هٰذِهِ المَرَّةَ وجَدْتُ على بابِهِ خادِمًا - والكُرَماءُ لا يُوقِفونَ على أَبْوابِهِمْ خُدّامًا - فَمَنَعَني مِنَ الدُّخولِ إِلَيْهِ، ثُمَّ قالَ:

«وَاللهِ، يا أَصْمَعِيُّ، ما أَوْقَفَني عَلى بابِهِ لِأَمْنَعَ مِثْلَكَ إِلّا لِرِقَّةِ حالِهِ، وقُصورِ يَدِهِ.»

فَقُلْتُ في نَفْسي: «وكَيْفَ أُحادِثُ الرَّجُلَ وأَعْلَمُ ما بِهِ؟»

وخَطَرَتْ إِلى ذِهْني فِكْرَةٌ، فَأَحْضَرْتُ رُقْعَةً (قِطْعَةً مِنَ الوَرَقِ ونَحْوِه للكِتابَةِ) صَغيرَةً وكَتَبْتُ

فيها:

إِذا كانَ الكَريمُ لَهُ حِجابٌ

فَما فَضْلُ الكَريمِ على اللَّئيم؟

ثُمَّ قُلْتُ لِلْخادِمِ: أَوْصِلْ رُقعَتي إِلَيْهِ، فَفَعَلَ وعادَ بِالرُّقْعَةِ، وقَدْ كَتَبَ صاحبي على ظَهْرِها:

«إذا كانَ الكَريمُ قَليلَ مالٍ

تَحَجَّبَ بِالحِجابِ على الغَريمِ»

ومَعَ الرُّقْعَةِ صُرَّةٌ فيها خَمْسُمائَةِ دينارٍ.

فَقُلْتُ: «واللهِ لَأُتْحِفَنَّ أَميرَ المُؤْمِنينَ بِهذا الخَبَرِ.»

فَلَمّا رَآني قالَ: «مِنْ أَيْنَ جِئْتَ، يا أَصْمَعِيُّ؟»

قُلْتُ: «مِنْ عِنْدِ رَجُلٍ مِنْ أَكْرَمِ الأَحْياءِ حاشا أَميرَ المُؤْمِنينَ!»

سَأَلَني: «ومَنْ هُوَ؟»

فَدَفَعْتُ إِلَيْهِ الوَرَقَةَ والصُّرَّةَ، وأَعَدْتُ الخَبَرَ عَلَيْهِ، فَلَمّا رَأى أَميرُ المُؤْمِنينَ الصُّرَّةَ قالَ:

«هَذا مِنْ بَيْتِ مالي، ولا بُدَّ لي مِنَ الرَّجُلِ!»

فَقُلْتُ: «واللهِ، يا أَميرَ المُؤْمنينَ، إِنّي أَخشى أَنْ يَرْتاعَ مِنَ الرُّسُلِ!»

فَقالَ أَميرُ المُؤْمنينَ: «وكَيْفَ الوُصولُ إِلَيْه؟»

قُلْتُ: «لِيُرْسِلْ أَميرُ المُؤْمنينَ مَعي مَنْ يُحْضِرُهُ!»

فَقالَ لأحَدِ الحُرّاسِ: «امْضِ مَعَ الأَصْمَعِيِّ، فإِذا أَراكَ الرَّجُلَ، فَقُلْ لَهُ: أَجِبْ أَميرَ المُؤْمنينَ دونَ إِزْعاجٍ!»

فَلَمّا حَضَرَ الرَّجُلُ بَيْنَ يَدَيِ المَأْمونِ قالَ لَهُ: «أَنْتَ الَّذي عَرَضْتَ لَنا بِالأَمْسِ، وشَكَوْتَ لَنا رِقَّةَ حالِكَ، وأَنَّ الزَّمانَ قَدْ عَدا عَلَيْكَ، فَدَفَعْنا إِلَيْكَ هَذِهِ الصُّرَّةَ لِتُصْلِحَ بِها حالَكَ، فَيَقْصِدُكَ الأَصْمَعِيُّ بِبَيْتٍ واحِدٍ فَتَدْفَعَها إِلَيْهِ!»

فَقال: «نَعَمْ، يا أَميرَ المُؤْمنينَ. واللهِ ما كَذَبْتُ فيما شَكَوْتُ لِأَميرِ المُؤْمنينَ، لَكِنّي اسْتَحْيَيْتُ مِنَ اللهِ تَعالى أَنْ أُعيدَ قاصِدي إِلّا كَما أَعادني أَميرُ المُؤْمنينَ.»

فَقالَ لَهُ أَميرُ المُؤْمنينَ: «لِلهِ أَنْت! فَما وَلَدَتِ العَرَبُ أَكْرَمَ مِنْكَ.»

دَوامُ النِّعْمَة

حُكِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ حميدِ الطّوسِيِّ، وكانَ عامِلًا لِلْخَليفَةِ المَأْمونِ عَلى المَوصِلِ، أَنَّهُ جَمَعَ جُلَساءَهُ يَوْمًا لِلْغَداءِ، وحَفَلَتِ المائِدَةُ بِلَذيذِ الطَّعامِ، وأَخَذَ الجَمْعُ يَتَبارى في سَرْدِ المُلَحِ والنِّكاتِ، وإِذا بِصَيْحَةٍ عَظيمَةٍ على بابِ دارِهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، وقالَ لِبَعْضِ غِلْمانِهِ:

«ما هَذِهِ الضَّجَّةُ؟ مَنْ كانَ عَلى البابِ فَلْيَدْخُلْ!»

خَرَجَ خادِمُهُ إلى البابِ ثُمَّ عادَ إِلَيْهِ قائِلًا: «سَيِّدي، إِنَّ فُلانًا الَّذي أَرْسَلْتَ في طَلَبِهِ قَدْ أُخِذَ، وقَدْ أُوثِقَ بِالحَديدِ. والحُرّاسُ يَنْتَظِرونَ أَمْرَكَ فيهِ، فَقَدْ أَجْهَدَهُمْ طَلَبُهُ، وأَعْياهُمُ البَحْثُ عَنْهُ حَتّى ظَفِروا بِهِ.»

فَرَفَعَ مُحَمَّدُ بْنُ حميدِ الطّوسِيِّ يَدَهُ عَنِ الطَّعامِ، وظَهَرَتْ عَلَيْهِ أَماراتُ الضّيقِ والتَّبَرُّمِ، وسَكَتَ عَنِ الكَلامِ، وتَوَقَّفَ عَنِ الطَّعامِ

حَتّى قالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسائِهِ:

«الحَمْدُ لِلهِ الَّذي أَمْكَنَكَ مِنْ عَدُوِّكَ، يا سَيِّدي.»

وقالَ آخَرُ: «سَبيلُهُ أَنْ تُسْقى الأَرْضُ مِنْ دَمِهِ.»

وأَشارَ كُلٌّ مِنْ جُلَسائِهِ عَلَيْهِ بِقَتْلِهِ على صِفَةٍ اخْتارَها، وهُوَ ساكِتٌ!

وظَلَّ ابْنُ حَميدٍ مُطْرِقًا لِقَوْلِ جُلَسائِهِ وَقْتًا حَتّى قَطَعَ بِرَأْيِهِ، وواصَلَ الحَديثَ قائِلًا:

«يا حُرّاسُ، فُكّوا عَنِ الرَّجُلِ وَثاقَهُ، وأَدْخِلوهُ عَلَيْنا مُكْرَمًا مَأْمونًا.»

فَأُدْخِلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ لا دَمَ فيه خَوْفًا وفَزَعًا، فَلَمّا رَآهُ ابْنُ حَميدٍ ابْتَهَجَ، وارْتاحَتْ نَفْسُه لَهُ، وأَمَرَ بِرَفْعِ المَجْلِسِ، ثُمَّ أَمَرَ بِتَجْديدِ الطَّعامِ، وأَخَذَ يَبْسُطُ لَهُ الكَلامَ، ويُلْقِمُهُ الطَّعامَ حَتّى انْتَهى.. ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِكُسْوَةٍ حَسَنَةٍ، وأَمَرَ بِرَدِّهِ إِلى أَهْلِهِ مُكْرَمًا، ولَمْ يُعاتِبْهُ على جُرْمٍ ولا جِنايَةٍ.

احْتارَ المَجْلِسُ مِنْ فِعْلِ الأَميرِ، وسادَ الصَّمْتُ وَقْتًا طَويلًا،

حَتّى الْتَفَتَ ابْنُ حَميدٍ إلى جُلَسائِهِ، وقالَ لَهُمْ:

«إِنَّ أَفْضَلَ الأَصْحابِ مَنْ حَضَّ الصَّاحِبَ على المَكارِمِ، ونَهاهُ عَنِ ارْتِكابِ المَآثِمِ، وحَسَّنَ لِصاحِبِهِ أَنْ يُجازِيَ الإِحْسانَ بِضِعْفِهِ، والإِساءَةَ بِالصَّفْحِ. إِنّا إِذا جازَيْنا مَنْ أَساءَ إِلَيْنا بِمِثْلِ ما أَساءَ، فَأَيْنَ مَوْقِعُ الشُّكْرِ على النِّعْمَةِ، إِنَّهُ يَنْبَغي لِمَنْ حَضَرَ مَجالِسَ المُلوكِ أَنْ يُمْسِكَ إِلّا عَنْ قَوْلٍ سَديدٍ وأَمْرٍ رَشيدٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَدْوَمُ لِلنِّعْمَةِ، وأَجْمَعُ لِلْأُلْفَةِ.»

في
حُسْنِ التَّوَكُّل

رُفِعَ إلى هارونِ الرَّشيدِ أَمْرُ رَجُلٍ مِنْ دِمَشْقَ يَمُتُّ بِصِلَةٍ لِلْبَيْتِ الأُمَوِيِّ، وكانَ العَبّاسِيّونَ يَكْرَهونَ بَني أُمَيَّةَ، وكانَ الرَّجُلُ عَظيمَ المالِ، كَبيرَ الجاهِ، مُطاعًا في بَلَدِهِ، لَهُ جَماعَةٌ مِنَ الأَبْناءِ والمَماليكِ والأَتْباعِ، وقَدْ خَرجوا وحَمَلُوا السِّلاحَ في دارِ الخِلافَةِ؛ فَاشْتَدَّ أَمْرُهُمْ، وسادَ قَلَقُهُمْ، وأَزْعَجَ حالُهُمْ أَميرَ المُؤْمِنينَ هارونَ الرَّشيدَ، فقَالَ لِخادِمِهِ:

«أُخْرُجِ السّاعَةَ إلى بَلَدِ الرَّجُلِ فَقَيِّدْهُ وجِئْني بِهِ، وَاحْتَطْ لِأَمْرِهِ، فَاجْعَلْهُ في مَحمِلٍ (هَوْدَجٍ) تَقْعُدُ أَنْتَ في شُقَّةٍ (نِصْفٍ) وهُوَ في الأُخْرى، ولا يَلْحَظْ مِنْ أَمْرِهِ شَيْئًا، واحْفَظْ ما يَقولُهُ لَكَ حَرْفًا حَرْفًا.»

وذَهَبَ الخادِمُ، فَأَتى بَيْتَ الرَّجُلِ، ودَخَلَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وصارَ إلى

صَحْنِ الدّارِ (مِساحَتِها الوُسْطَى) ونَزَلَ، وسَأَلَ عَنِ الرَّجُلِ فَقالوا إِنَّهُ في الحَمّامِ. وبَعْدَ وَقْتٍ خَرَجَ الرَّجُلُ، بَعْدَ أَنْ طالَ مُكْثُهُ، يَمْشي في صَحْنِ الدّارِ وحَوْلَهُ جَماعَةٌ مِنَ الشَّبابِ، وهُمْ يُحيطونَ بِهِ، فَعَلِمَ الخادِمُ أَنَّهُ الرَّجُلُ حَقًّا.

وجاءَ الرَّجُل وَسَلَّمَ على الخادِمِ، وَسَأَلَهُ عَنْ أَميرِ المُؤْمِنينَ، واسْتِقامَةِ أَمْرِهِ، فَأَخْبَرَهُ بِما يَتَوَجَّبُ عَلَيهِ أَنْ يَذْكُرَهُ.

وأَدْخَلَ الرَّجُلُ أَطْباقَ الفاكِهَةِ ثُمَّ مائِدَةً حَسَنَةً، فَامْتَنَعَ الخادِمُ عنها، فَما عاوَدَهُ الرَّجُلُ.

فَلَمّا فَرَغَ الرَّجُلُ مِنْ أَكْلِهِ قامَ إِلى الصَّلاةِ فَصَلّى وأَكْثَرَ مِنَ الدُّعاءِ والابْتِهالِ، ثُمَّ سَأَلَ الخادِمَ:

«ما أَقْدَمَكَ إِلَيْنا، يا خادِمَ أَميرِ المُؤْمِنينَ؟»

فَأَخْرَجَ الخادِمُ كِتابَ أَميرِ المُؤْمِنينَ ودَفَعَهُ إِلَيْهِ، فَفَضَّهُ وقَرَأَهُ، ثُمَّ أَمَرَ أَوْلادَهُ بِالإِنْصِرافِ، وقالَ:

«هَذا كِتابُ أَميرِ المُؤْمِنينَ، ولَسْتُ أُقيمُ بَعْدَ نَظَري فيهِ ساعَةً واحِدَةً. هاتِ قُيودَكَ وقَيِّدْني!»

وسارَ الخادِمُ بِالرَّجُلِ مُقَيَّدًا وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، فَابْتَدَأَ الرَّجُلُ يُحَدِّثُ الخادِمَ بِانْبِساطٍ حَتّى انْتَهَيا إلى بُسْتانٍ حَسَنٍ، فقالَ للخادِمِ:

«أَتَرى هَذا؟»

أَجابَ الخادِمُ: «نعم.»

قالَ الرَّجُلُ: «إِنَّهُ لي، وفيهِ مِنْ غَرائِبِ الأَشْجارِ الكَثيرُ.»

ثُمَّ انْتَهى إلى مَزارِعَ حِسانٍ وقُرًى وغَيْرِ ذَلِكَ فَاشْتَدَّ غَيْظُ الخادِمِ مِنْ تَصَرُّفِ الرَّجُلِ، وقالَ لَهُ:

«أَلَسْتَ تَعْلَمُ أَنَّ أَميرَ المُؤْمِنينَ أَهَمَّهُ أَمْرُكَ حَتّى أَرْسَلَ إِلَيْكَ يَنْتَزِعُكَ مِنْ بَيْنِ أَهْلِكَ ومالِكَ وَوَلَدِكَ، وأَنْتَ فارِغُ القَلْبِ مِنْ هَذا حَتّى تَصِفَ ضِياعَكَ وبَساتينَكَ؟ أَلا تَخْشى أَميرَ المُؤْمِنينَ؟»

قالَ الرَّجُلُ مُجيبًا: «إِنّا لِلهِ وإِنّا إِلَيْهِ راجِعونَ! أَخْطَأَتْ فِراسَتي فيكَ. لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ رَجُلٌ كامِلُ العَقْلِ، وأَنَّكَ ما حَلَلْتَ مِنَ الخُلَفاءِ هَذا المَحَلَّ إِلّا لِما عَرَفوكَ بِذَلِكَ، فإِذا بِكَلامِكَ يُشْبِهُ كَلامَ العَوامِّ.

«أَمّا قَوْلُكَ في أَميرِ المُؤْمِنينَ وإِزْعاجِهِ وإِخْراجِهِ إِيّايَ عَلى



صورَتي هَذِهِ، فَإِنّي على ثِقَةٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذي بِيَدِهِ ناصِيَةُ أَميرِ المُؤْمنينَ، وَلا يَمْلِكُ أَميرُ المُؤْمِنينَ لِنَفْسِهِ نَفْعًا ولا ضُرًّا إِلّا بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، ولا ذَنْبَ لي عِنْدَ أَميرِ المُؤْمِنينَ كَيْ أَخافَهُ، وقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُك تَعْرِفُ ما ذَكَرْت.

«أَما وإِنْ عَرَفْتُ مَبْلَغَ فَهْمِكَ فَإِنّي لا أُكَلِّمُكَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ حَتّى يَفْرُقَ بَيْنَنا أَميرُ المُؤْمِنينَ ويَفْصِلَ في أَمْري.»

ثُمَّ أَعْرَضَ الرَّجُلُ عَنِ الخادِمِ فَما سَمِعَ مِنْهُ لَفْظَةً غَيْرَ التَّسْبيحِ أَوْ طَلَبِ الماءِ أَوْ حَتّى حاجَةٍ أُخْرى.

دَخَلَ الرَّجُلُ عَلى الرَّشيدِ، فَابْتَدَرَ أَميرُ المُؤْمِنينَ الخادِمَ قائِلًا: «هاتِ ما عِنْدَكَ، يا خادِمَنا.»

فساقَ الخادِمُ الحَديثَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلى آخِرِهِ حَتّى قالَ في نِهايَتِهِ:

«وَاللهِ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، ما أَرى هَذا الرَّجُلَ إِلّا مَحْسودًا ومَكْذوبًا في أَمْرِهِ. ولَقَدْ أَزْعَجْناهُ وآذَيْناهُ وَرَوَّعْنا أَهْلَهُ.»

فَقالَ أَميرُ المُؤْمنينَ: «حَقًّا ما تَقول! واللهِ ما أَرى هَذا الرَّجُلَ إِلّا مَحْسودَ النِّعْمَةِ. فُكَّ قَيْدَهُ وأَدْنِهِ مِنّي.»

فَلَمّا اقْتَرَبَ الرَّجُلُ مِنَ الرَّشيدِ أَخَذَ ماءُ الحَياءِ يَجْري في وَجْهِ الرَّشيدِ حَتّى سَأَلَهُ الرَّشيدُ قائِلًا:

«بَلَغَنا عَنْكَ فَضْلُ هَيْئَةٍ، وأُمورٍ أَحْبَبْنا مَعَها أَنْ نَراكَ، ونَسْمَعَ كَلامَكَ، ونُحْسِنَ إِلَيْكَ، فَاذْكُرْ حاجَتَكَ!»

قالَ الرَّجُلُ: «واللهِ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، لا حاجَةَ لي غَيْرُ أَنْ تَرُدَّني إلى بَلَدي وأَهْلِي، فَعُمّالُكَ مُنْصِفونَ، وقَدِ اسْتَغْنَيْتُ بِعَدْلِهِمْ عَنِ المَسْأَلَةِ.»

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «إِذَنْ فَانْصَرِفْ مُكْرَمًا مُبَجَّلًا، واكْتُبْ إِلَيَّ بِأَمْرٍ إِنْ عَرَضَ لَكَ.»

ثُمَّ الْتَفَتَ الرَّشيدُ إلى خادِمِهِ بَعْدَ خُروجِ الرَّجُلِ وقالَ لَهُ:

«يا هذا، احْمِلْ هَذا الرَّجُلَ إلى أَهْلِهِ، وسِرْ بِهِ راجِعًا كَما جِئْتَ بِهِ، حَتّى إِذا وَصَلْتَ إلى مَجْلِسِهِ الَّذي أَخَذْتَهُ مِنْهُ فَدَعْهُ وَانْصَرِفْ.»

فَفَعَلَ الخادِمُ، وجَزى اللهُ الإِحْسانَ بِالإِحْسانِ، والعَدْلَ بِالْعَدْلِ، والتَّوَكُّلَ بِطَيِّبِ الفِعْلِ.

مِنْ
حِكايات حاتِم

كانَتِ النِّساءُ أَوْ بَعْضُهُنّ يُطَلِّقْنَ الرِّجالَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ طَلاقُهُنَّ أَنَّهُنَّ يُحَوِّلْنَ أَبْوابَ بُيوتِهِنَّ، إنْ كانَ البابُ إلى المَشْرِقِ جَعَلْنهُ إلى المَغْرِبِ، وإنْ كانَ البابُ قِبَلَ اليَمَنِ جَعَلْنهُ قِبَلَ الشّام، فإذا رَأى الرَّجُلُ ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّ زَوْجَتَهُ قَدْ طَلَّقَتْهُ.

وكانَ لِحاتِمِ الطّائيّ زَوْجَةٌ تُسَمّى ماوِيَّةَ، وشَقَّ عَلَيْها كَرَمُ حاتِمٍ حَتّى شَغَلَها ابْنُ عَمٍّ لَها يُقال لَهُ مالِكٌ قائلًا:

«ما تَصْنَعينَ بِحاتِمٍ؟ فَواللهِ لَئِنْ وَجَدَ شَيْئًا لَيُتْلِفَنَّهُ، ولَئِن لَمْ يَجِدْ لَيَتَكَلَّفَنَّ، ولَئِنْ ماتَ لَيَتْرُكَنَّ وَلَدَهُ عِيالًا على قَوْمِهِ. طَلِّقي حاتِمًا وأَنا أَتَزَوَّجُ بِكِ، فأنا خَيْرٌ لَكِ مِنْهُ، وأَكْثَرُ مالًا، وأنا أُمْسِكُ عَلَيْكِ وعَلى وَلَدِك.»

فَقالَتْ ماوِيَّةُ: «صَدَقْتَ، إِنَّهُ لَكَذلِكَ.»

فَلَمْ يَزَلْ بِها حَتّى طَلَّقَتْ حاتِمًا، وحَوَّلَتْ بابَ خِبائِها (خَيْمَتِها).

أَتى حاتِمٌ فَوَجَدَها قَدْ حَوَّلَتْ بابَ الخِباءِ، فَقالَ لابْنِهِ:

«يا عَدِيُّ، ما تَرى أُمَّكَ؟ ما عَدا عَلَيْها؟»

قال: «لا أَدْري! غَيْرَ أَنَّها حَوَّلَتْ بابَ الخِباءِ.» وصَمَتَ.

وجاءَ قَوْمٌ فَنَزَلوا عَلى بابِ الخِباءِ، كَما كانوا يَنْزِلونَ فَضاقَتْ بِهِمْ ماوِيَّةُ ذَرْعًا، وأَظْهَرَتْ تَبَرُّمًا وضيقًا، وجَعَلَتْ تَطيشُ فيما حَوْلَها، حَتّى قالَتْ لِجارِيَتِها:

«هَيّا اذْهبي إلى مالِكٍ فَقولي لَهُ: إِنَّ ضيوفًا لحاتِمٍ قَدْ نَزَلوا بالخِباءِ، فَأَرْسِلْ إِلَيْنا بَعيرًا نَنْحَرُها ولَبَنًا نَسقيهِمْ.»

فَلَمّا أَتَتِ الجارِيَةُ مالِكًا وَجَدَتْهُ مُتَوَسِّدًا فَرْشًا يَسيرًا، فَأَيْقَظَتْهُ وأَبْلَغَتْهُ الرِّسالَةَ، وقالَتْ:

«إِنَّها اللَّيْلَةُ لِيَعْلَمَ النّاسُ قَدْرَكَ وشَأْنَكَ.»

فَأَدْخَلَ مالِكٌ يَدَهُ في رَأْسِهِ وقالَ: «أَقْرِئي ماوِيَّةَ السَّلامَ وقولي لَها: هَذا الَّذي أَمَرْتُكِ أَنْ تُطَلِّقي حاتِمًا مِنْ أَجْلِهِ، وما عِنْدي لَبَنٌ

يَكْفي أَضْيافَ حاتِمٍ!»

رَجَعَتِ الجارِيَةُ فَأَخْبَرَتْ ماوِيَّةَ بِما رَأَتْ مِنْ مالِكٍ.

فَقالَتْ ماوِيَّةُ: «وَيْلَكِ! اِئْتي حاتِمًا فَقولي لَهُ: إِنَّ أَضْيافَكَ قَدْ نَزَلوا اللَّيْلَةَ بِنا، فَأَرْسِلْ إِلَيْنا بَعيرًا نَنْحَرُها ولَبَنًا نَسقيهِمْ.»

فَأَتَتِ الجارِيَةُ حاتِمًا فَصَرَخَتْ بِهِ، فقالَ حاتِمٌ: «لَبَّيْكِ قَريبًا دَعَوْتِ!»

فَقالَتْ: «إِنّ أَضْيافَكَ قَدْ نَزَلوا بِنا اللّيْلَةَ، فَأَرْسِلْ إِلَيْهِمْ بَعيرًا نَنْحَرُها ولَبَنًا نَسقيهِمْ.»

فقالَ حاتِمٌ: «نَعَمْ وأَبي!»

ثُمَّ قامَ إِلى الإِبِلِ فَأَطْلَقَ اثْنَيْنِ مِنْ عِقالَيْهِما، ثُمَّ صاحَ بِهِما حَتّى أَتى الخِباءَ، فَضَرَبَ عَراقيبَهُما، فَطَفِقَتْ ماوِيَّةُ تَصيحُ وتَقول:

«هَذا الَّذي طَلَّقْتُكَ فيهِ! تَتْرُكُ وَلَدَكَ ولَيْسَ لَهُمْ شَيْءٌ!»

أَبو بَحْرٍ الصّادِق

انْقَضى أَمْرُ خِلافَةِ الرّاشِدينَ بِمَقْتَلِ الإِمامِ عَلِيٍّ - كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ - وَوِلايَةِ مُعاوِيَةَ بْنِ أَبي سُفْيانَ خِلافَةَ المُسْلِمينَ، وأَرادَ أَنْ يَجْعَلَ الحُكْمَ حُكْمًا راسِخًا لا يَخْرُجُ مِنْ بَني أُمَيَّةَ أَبَدًا، فَنَصَّبَ ابْنَهُ يَزيدَ لِيَتَوَلّى الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ، فَأَقْعَدَهُ لِوِلايَةِ العَهْدِ في قُبَّةٍ حَمْراءَ، وجَعَلَ النّاسُ يُسَلِّمونَ على مُعاوِيَةَ ثُمَّ يُسَلِّمونَ على يَزيدَ، حَتّى جاءَ رَجُلٌ فَفَعَلَ، ثُمَّ رَجَعَ إلى مُعاوِيَةَ فَقالَ:

«يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، أَعْلَمُ أَنَّكَ لَوْ لَمْ تُوَلِّ يَزيدَ هَذا أُمورَ المُسْلِمينَ لَأَضَعْتَها.»

وكانَ في المَجْلِسِ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وهُوَ مِنَ العُظَماءِ الدُّهاةِ الفُصَحاءِ الشُّجْعانِ، يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ في الحِلْمِ، وكانَ ساكِتًا لا يَتَحَدَّثُ ولا يَنْطِقُ، فَقالَ مُعاوِيَةُ:

«ما لَكَ لا تَقولُ، يا أَبا بَحْرٍ، ما رَأْيُكَ؟»

قالَ الأَحْنَفُ: «أَخافُ اللهَ تَعالى، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، إِنْ كَذَبْتُ، وأَخافُكُمْ إِنْ قُلْتُ الصِّدْقَ.»

قالَ مُعاوِيَةُ: «جَزاكَ اللهُ خَيْرًا عَمّا تَقولُ، يا أَبا بَحْرٍ.»

فَلَمّا خَرَجَ الأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ لَقِيَهُ الرَّجُلُ الَّذي بايَعَ مُعاوِيَةَ في البَدْءِ، وقالَ:

«واللهِ يا أَبا بَحْرٍ، إِنّي لَأَعْلَمُ أَنَّ هَذا (يَقْصِدُ يَزيدَ بْنَ مُعاوِيَةَ) مِنْ شِرارِ النّاسِ، ولَكِنَّهُمُ اسْتَوْثَقوا الأَمْوالَ بِالْأَبْوابِ والأَقْفالِ، ولَسْنا نَفْتَحُ هَذِهِ الأَقْفالَ إِلّا بِما سَمِعْتَ.»

قالَ الأَحْنَفُ: «يا هَذا، أَمْسِكْ عَمّا تَقولُ، فإِنّ ذا الوَجْهَيْنِ خَليقٌ أَلّا يَكونَ عِنْدَ اللهِ وَجيهًا يَوْمَ القِيامَةِ، وإِنّما تُؤْتى الأَرْزاقُ بِالصِّدْقِ والحَقِّ، وَلا تَكونُ بِالكَذِبِ والنِّفاقِ.»

الأيّامُ دُوَلٌ

انْعَقَدَ مَجْلِسُ أميرِ المُؤْمِنينَ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ، وكانَ مِنْ عادَةِ أميرِ المُؤْمِنينَ أن يَجمَعَ في مَجْلِسِهِ بَيْنَ الشُّعراءِ والأُمَراءِ وذَوي الجاهِ والسُّلْطانِ؛ إذْ كانَ الأَميرُ شَغوفًا بِالشِّعْرِ، مُحِبًّا لِروايَتِهِ، ذَوّاقًا لأَغْراضِهِ وحِكَمِهِ، وكثيرًا ما كان يَسْتَشْهِدُ في أَقْوالِهِ مِنْ بُطونِ الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، وكانَ دائمًا يَقولُ:

«إنَّ الشِّعْرَ قَدْ حوى حِكْمَةَ العَرَبِ.»

وفي يَوْمٍ انْعَقَدَ المَجْلِسُ عَلى خِلافِ العادَةِ؛ إذْ ضَمَّ المَجْلِسُ شَخْصِيَّةً غَريبَةً، الأَمْرُ الَّذي اسْتَرْعى انْتِباهَ أميرِ المُؤْمِنينَ، فقالَ مُتَسائِلًا:

«مَنِ الرَّجُلُ الَّذي يَجْلِسُ على مَقْرُبَةٍ مِنّا؟»

رَدَّ حاجِبُ أَميرِ المُؤْمِنينَ قائلًا: «لِيَأْذَنْ لي أَميرُ المُؤْمِنينَ في

التَّعْريفِ بِالرَّجُلِ، فإِنَّ أَمْرَهُ عَجيبٌ!»

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «تَفَضَّلْ، على أَنْ تُوجِزَ، فأَمامَنا الكَثيرُ مِنَ الأُمورِ المُهِمَّةِ الَّتي تَخُصُّ الخِلافَةَ.»

قالَ الحاجِبُ: «لَقَدْ رَأَيْتُ، يا سَيِّدي، مِنْ هَذا الرَّجُلِ عَجَبًا. لَقَدِ الْتَزَمَ بابَ الخِلافَةِ ومَكانَ إقامَتِكُمْ شَهْرًا كامِلًا يَغْدو ويَعودُ دونَ أَنْ يُحَدِّثَ أَوْ يُكَلِّمَ أَحَدًا في شَأْنِهِ، حَتّى اجْتَمَعَ عَلَيْهِ الحُرّاسُ، يا سَيِّدي، وأَلَحّوا في سَبَبِ الْتِزامِ مَقامِكُمْ، فأَقْسَمَ أَنَّهُ لَنْ يَتكَلَّمَ إلّا في حَضْرَةِ أَميرِ المُؤْمِنينَ.»

قالَ أميرُ المُؤْمِنينَ مُتَفَحِّصًا وَجْهَ الرَّجُلِ: «وأَنْتَ الآنَ في حَضْرَةِ أَميرِ المُؤْمِنينَ! ما الذي جاءَ بِكَ إلى بابِنا، يا والِدي؟»

قالَ الرَّجُلُ، وكانَ مُشَوَّهَ الوَجْهِ، رَثَّ الثِّيابِ: «أنا مِنْ قَبيلَةِ عَبْسٍ، يا سَيِّدي.»

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «وما قِصَّتُكَ، أَيُّها العَبْسِيُّ؟»

قالَ الرَّجُلُ: «يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، كُنْتُ مِنْ أَغْنى النّاسِ، وأَوْسَعِهِمْ مالًا، وأَكْثَرِهِمْ فَضْلًا، وأَعَزِّهِمْ عِيالًا، وأَنْعَمِهِمْ بالًا.

وكُنْتُ ذا حَسَبٍ ونَسَبٍ، وكانَ لا يَمْنَعُني عَنْ قَضاءِ حَوائِجِ النّاسِ إلّا مَرَضٌ أَوْ سَفَرٌ أَوْ قِلَّةٌ في المَوْرِدِ، فَخَرَجْتُ يَوْمًا بِمالي وأَهْلِي لِأَضْرِبَ في سَبيلِ اللهِ بقَصْدِ التِّجارَةِ والرِّبْحِ، وكانَ خُروجي رَغْبَةً في الثَّراءِ الأَوْسَعِ، والجاهِ الأَقْوَى. وقُلْتُ، يا سَيِّدي، أَتَّجِهُ إلى الشّامِ، فَمِنْها أَبْتاعُ (أَشْتَري) الأَقْمِشَةَ والفاكِهَةَ والعُطورَ، وأَعودُ مَوْفورَ الصِّحّةِ، سَليمَ البَدَنِ مِنْ جَوِّها الطَّيِّبِ وهَوائِها العَليلِ.»

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «صِدْقًا ما تَقولُ، يا والِدي!»

قالَ العَبْسِيُّ: «كانَتْ وِجْهَتي الشّامَ، يا سَيِّدي، وكانَ الطَّريقُ مُوحِشًا وأَدْرَكَني اللَّيْلُ، ولَيْلُ الصَّحْراءِ بَهيمٌ (أَسْوَدُ حالِكٌ)، فَقُلْتُ أَبيتُ أَنا وأَولادي في رُكْنِ جَبَلٍ حَتّى يَتَنَفَّسَ الصُّبْحُ (يَظْهَرُ)، ثُمَّ أَسْتَكْمِلُ رِحْلَتي مَعَ أَهْلي وأَوْلادي. وبيْنَما نَحْنُ نائِمونَ؛ إذْ هَبَطَ عَلَيْنا سَيْلٌ شَديدٌ مِنْ أَعْلى الجَبَلِ، فَلَمْ أَسْتَيْقِظْ مِنْ نَوْمي إلّا وقَدْ غَرِقَ أَهْلِي وأَوْلادي. وجَرَفَ السَّيْلُ الهائِلُ مالي، ولَمْ يَبْقَ مِنْ أَوْلادي إلّا أَصْغَرُهُمْ سِنًّا، ولَمْ يَبْقَ مِنْ أَبْعِرَتي سِوى بَعيرٍ واحِدٍ، فَقُمْتُ مِنْ فَوْري كالمَجْنونِ، وحَمَلْتُ الطِّفْلَ عَلى كَتِفي، ورُحْت إلى بَعيري مُسْرِعًا لأَنْظُرَ شَأْنَهُ، فَلَمّا رَآني قَريبًا مِنْهُ وَلّى مُدْبِرًا ولَمْ يُعَقِّبْ،

فَوَضَعْتُ الطِّفْلَ عَنْ كَتِفي على رَبْوَةٍ قَريبَةٍ، ثُمَّ عَدَوْتُ خَلْفَ البَعير لِأَرُدَّهُ، فَقَدْ هَلَكَتِ الإِبِلُ، ولَمْ يَعُدْ لِلْعَوْدَةِ سَبيلٌ إلّا على ظَهْرِهِ؛ فَرَكَلَني بِرِجْلِهِ في وَجْهي، فَهَشَّمَ أَنْفي، وكَسَرَ أَسْناني، فَقُمْتُ خَلْفَهُ مَرَّةً أُخرى لأُدْرِكَهُ؛ فإذا به يَرْفُسُني في وَجْهي فَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُواصِلَ العَدْوَ خَلْفَهُ. فَعُدْتُ مُسْرِعًا يائسًا أَتَلَمَّسُ طِفْلي حَيْثُ وَضَعْتُهُ، فَلَمّا اقْتَرَبْتُ مِنْه فإذا بِي أَسْمَعُ صَوْتَهُ يَخْتَنِقُ، فَلَمّا اقْتَرَبْتُ مِنْهُ فَإذا به لُقْمَةٌ سائِغَةٌ بِفَمِ ذِئْبٍ جائِعٍ. ولَمْ أُدْرِكْهُ، يا سيِّدي، حَتّى افْتَرَسَهُ الذِّئْبُ.»

ثُمَّ صَمَتَ الرَّجُلُ وغَلَبَهُ البُكاءُ، وسادَ في مَجْلِسِ أَميرِ المُؤْمِنينَ صَمْتٌ ثَقيلٌ مُوحِشٌ حَتّى خَرَقَ أَميرُ المُؤْمِنينَ جِدارَ الصَّمْتِ قائِلًا:

«أَكْمِلْ قِصَّتَكَ، يا رَجُلُ، فالمَجْلِسُ وأَميرُهُ في شَغَفٍ لِمَعْرِفَةِ مَأْساتِكَ.»

قالَ الرَّجُلُ: «أَرَأَيْتَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ، فَقَدْ فَقَدْتُ أَهْلي وسَبْعًا مِنْ أَوْلادي، وبَعيري ومالي، وأَمْسَيْتُ مِنْ أَعَزِّ النّاسِ وأَغْناهُمْ، وأَصْبَحْتُ الآنَ مِنْ أَذَلِّهِمْ وأَفْقَرِهِمْ وأَضْعَفِهِمْ.»



قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «سُبْحانَ مُغَيِّرِ الأَحْوالِ ومُقَلِّبِها. لَكِنْ ما الَّذي جَعَلَكَ تَتَعَلَّقُ بِبابِنا؟»

قالَ الرَّجلُ: «واللهِ، يا أميرَ المُؤْمنينَ، ما جِئْتُ إِلَيْكَ طالِبًا شَيْئًا، ولَكِنّي أَحْبَبْتُ أَنْ أُذَكِّرَ سَيِّدي بِأَنَّ العاقِلَ حَقًّا مَنْ لا يَغْتَرُّ بمالِهِ أَوْ وَلَدِهِ أَوْ جاهِهِ وصِحَّتِهِ.»

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «لَقَدْ نَصَحْتَنا يا رَجُلُ.» وأَنْشَدَ يَقولُ:

لِكُلِّ شَيْءٍ إذا ما تَمَّ نُقْصانُ

فَلا يُسَرُّ بِطيبِ العَيْشِ إِنْسانُ

هِيَ الأَيّامُ كما شاهَدْتَها دُوَل

مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ ساءَتْهُ أَزْمانُ

بَلاغةُ رَجُل

اشْتَهَرَ أَميرُ المُؤْمِنينَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ بِالكَرَمِ وَالسَّخاءِ وحُبِّ الحِكْمَةِ ومُجالَسةِ الشُّعَراءِ، وصَحَّ أَنَّهُ صَنَعَ يَوْمًا طَعامًا فَأَكْثَرَ وأَطابَ، ودَعا النّاسَ إِلَيْهِ فأَكَلوا.

قالَ بَعْضُهُمْ: «ما أَطْيَبَ هَذا الطَّعامَ! ما نَرى أَنَّ أَحَدًا رَأى أَكْثَرَ مِنْهُ، وَلا أَكَلَ أَطْيَبَ مِنْهُ.»

فَقالَ أَعْرابِيٌّ: «أَمّا أَكْثَرَ فَلا؟ وأَمّا أَطْيَبَ فَقَدْ واللهِ أَكَلْتُ أَطْيَبَ مِنْهُ.»

فَطَفِقوا يَضْحَكونَ مِنْ قَوْلِهِ حَتّى إِذْ تَناهى (وَصَلَ) القَوْلُ إِلى أَميرِ المُؤْمِنينَ عَبْدِ المَلِكِ بْنِ مَرْوانَ أَشارَ إِلى الأَعْرابِيِّ فَأُدْنِيَ مِنْهُ، فَقالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ:

«ما أَنْتَ بِمُحِقٍّ فيما تَقولُ إِلّا أَنْ تُخْبِرَني بِما يُبَيِّنُ صِدْقَكَ.»

فَقالَ الأَعْرابِيُّ: «نَعَمْ، يا أَميرَ المُؤْمنينَ، عِنْدَما كُنْتُ بِمَدينَةِ هَجَرَ[1] في نَخْلٍ كَثيرٍ وخَيْرٍ عَميمٍ؛ إذ بِنَخْلَةٍ ما رَأَيْتُ تمرًا أَغْلَظَ ولا أَصْلَبَ ولا أَصْغَرَ نَوًى ولا أَحْلى حَلاوَةً مِنْ تَمْرِها.

«وكانَتْ تَأْتيها، يا سَيِّدي، أَتانٌ وَحْشِيَّةٌ، تَتَغَذّى على تَمْرِها، وتَأْوِي اللَّيْلَ تَحْتَها، فَأَعْظَمَني ذَلِكَ وَوَقَعَ مِنّي كُلَّ مَوْقِعٍ.

«ما إنِ انْطَلَقْتُ بِقَوْسي وأَسْهُمي، ثُمَّ في ساعَةِ السَّحَرِ أَقْبَلْتُ نَحْوَها حَتّى أَصَبْتُ بَعْضَها وأَجْهَزتُ عَلَيْها، ثُمَّ عَمَدْتُ إلى حَطَبٍ فَجَمَعْتُهُ وقَدَحْتُ زَنْدي وَأَشْعَلْتُ ناري، ومَلأْتُ بَطْني، ولَمْ أَفِقْ إلّا مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ يَلْسَعُ ظَهْري.»

فقالَ عَبْدُ المَلِكِ: «لَقَدْ أَكَلْتَ طَعامًا طَيِّبًا. ما أَلَذَّ وَصْفَكَ وأَطْيَبَ قَوْلَكَ! مَنْ أَنْتَ؟»

قالَ الرَّجُلُ: «أنا مِنْ أَخْوالِكَ، يا أَميرَ المُؤْمنينَ، مِنْ بَني عُذْرَةَ.»

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «أولَئِكَ فُصَحاءُ العَرَبِ، فَهَلْ لَكَ عِلْمٌ بِالشِّعْرِ؟»

---

(١) مَدينَةٌ في البَحْرينِ كانَتْ مَشْهورَةً بالتَّمْرِ الطَّيِّبِ. وذَلِكَ قَبْلَ وُقوعِها الآنَ ضِمْنَ التَّقْسيمِ الجُغْرافِيِّ لِلْمَمْلَكَةِ العَرَبِيَّةِ السُّعوديَّةِ.

قالَ الرَّجُلُ: «سَلْني عَمّا بَدا لَكَ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ!»

قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «أَيُّ بَيْتٍ قالَتْهُ العَرَبُ أَمْدَحُ؟»

قالَ: «قولُ جريرٍ:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا

وأَنْدى العالَمينَ بُطونَ راحِ»

وكانَ جَريرٌ في القَوْمِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ وتَطاوَل لِلْقَوْلِ، ثُمَّ قالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «فَأَيُّ بَيْتٍ قالَتْهُ العَرَبُ أَفْخَرُ؟»

قالَ: «قَوْلُ جَريرٍ:

إذا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنو تَميمٍ

حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضابا»

فَتَحَرَّكَ جَريرٌ وتَطاوَلَ أَكْثَرَ وأَكْثَرَ.

فَقالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «فَأَيُّ بَيْتٍ أَهْجى؟»

قالَ: «قَوْلُ جَريرٍ:

فَغُضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ

فَـلا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كِـلابا»

فاسْتَشْرَفَ (ارْتَفَعَ وعَلا) لَها جَريرٌ أَكْثَرَ.

فَقالَ أَميرُ المُؤْمِنينَ: «فَأَيُّ بَيْتٍ أَغْزَلُ؟»

قالَ: «قَوْلُ جَريرٍ:

إِنَّ العُيونَ الَّتي في طَرْفِها حَوَرٌ

قَتَلْننا ثُمَّ لَمْ يُحْيينَ قَتْلانا»

فَقالَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ مَرْوانَ: «لَكَ، يا جَريرُ، جائِزَةٌ مِنْ بَيْتِ المالِ، ولِلْعُذْرِيِّ مِثْلُ جائِزَتِكَ، لا يُنْقَصُ مِنْها شيء.»

فاهْتَزَّ جَريرٌ وطَرِبَ حَتّى قالَ:

«جائزتي لِلعُذْرِيِّ، يا أميرَ المُؤْمِنينَ.»

وكانَتْ جائِزَةُ جَريرٍ أَرْبَعَةَ آلافِ دِرْهَمٍ، فَخَرَجَ العُذْرِيُّ وفي يَدِهِ اليُمْنى ثَمانِيَةُ آلافِ دِرْهَمٍ، فمَا أَعْجَبَ الرَّجُلَ وفّى طَعامًا ثُمَّ حازَ مالًا بِالمَعْروفِ.

مِنْ
طُرَفِ العُلَماءِ

كانَ العُلماءُ قَديمًا لا يُتْقِنونَ حِرْفَةً واحِدَةً، بَلْ كانَتْ عُلومُهُمْ مُتعدِّدَةً، ومَعارِفُهُمْ مُتَنَوِّعَةً، ومِنْ هَؤلاءِ الفَيْلَسوفُ الفارابِيُّ الَّذي نَزَلَ ذاتَ مَرَّةٍ بِدِمَشْقَ عَلى سَيْفِ الدَّوْلَةِ الحَمدانِيِّ، وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقالَ لَهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: «اِجْلِسْ!»

قالَ الفارابِيُّ: «أَجْلِسُ حَيْثُ أَنا أَوْ حَيْثُ أَنْتَ؟»

قالَ سَيْفُ الدَّوْلة: «حَيْثُ أَنْتَ!»

فَتَخَطّى الفارابِيُّ رِقابَ النّاسِ، وجَعَلَ يُنَبِّهُ هَذا كَيْ يُفْسِحَ لَهُ مَكانًا لِلْخَطْوِ، ويَأْمُرُ هَذا بِأنْ يَعْجَلَ في الخَطْوِ حَتّى انْتَهى إلى مَجْلِسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ وزاحَمَهُ فيهِ حَتّى أَخرَجَهُ عَنْهُ.

أثارَ هَذا التَّصَرُّفُ غَضَبَ سَيْفِ الدَّوْلَةِ عَلى الفارابِيِّ، فأَشارَ

إلى بَعْضِ حُرّاسِهِ قائِلًا لَهُمْ بِلَهْجَةٍ فارِسِيَّةٍ: إنَّ هَذا الشَّيْخَ قَدْ أَساءَ الأَدَبَ، وإنّي سائِلُهُ عَنْ أَشْياءَ، فَإِنْ لَمْ يَعْرِفْها فاخْرُجوا بِهِ!»

قالَ لَهُ الفارابِيُّ: «أَيُّها الأَميرُ، عَلِمْتُ مَقالَتَكَ لِحُرّاسِكَ، فإنّي أَفْهَمُ تِلْكَ اللُّغَةَ، لَكِنِ اصْبِرْ، يا سَيِّدي، فإنَّ الأُمورَ بِعَواقِبِها.»

عَجِبَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ مِنْ ذَكائِهِ، وعَظُمَ عِنْدَهُ.

ثُمَّ أَخَذَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ يَتَكَلَّمُ مَعَ العُلَماءِ والحاضِرينَ في كُلِّ فَنٍّ، فَلَمْ يَزَلْ كَلامُ الفارابِيِّ يَعْلو وكَلامُهُمْ يَسْفُلُ حَتّى صَمَتوا وبَقِيَ يَتَكَلَّمُ وَحْدَهُ.

ثُمَّ أَخَذوا يَكْتُبونَ ما يَقولُ حَتّى صَرَفَهُمْ وخَلا بِالفارابِيِّ، فَقالَ لَهُ: «هَلْ لَكَ في أَنْ تَأْكُلَ؟»

قالَ الفارابِيُّ: «لا.»

قالَ: «فَهَلْ لَكَ أَنْ تَشْرَبَ؟»

قالَ الفارابِيُّ: «لا.»

قالَ: «هَلْ تَسْمَعُ؟»

قالَ: «نَعَمْ!»

فَأَمَرَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِإِحْضارِ أَهْلِ الطَّرَبِ، فَحَضَرَ كُلُّ ماهِرٍ في الصَّنْعَةِ، فَخَطَّأَ الجَميعَ، فَقالَ لَهُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ: «هَلْ تُحْسِنُ هٰذِهِ الصَّنْعَةَ؟»

قالَ: «نَعَمْ.»

ثُمَّ أَخْرَجَ الفارابِيُّ مِنْ جَعْبَتِهِ عيدانًا فَرَكَّبَها، ثُمَّ أَخَذَ يَلْعَبُ بِها، فَضَحِكَ كُلُّ مَنْ في المَجْلِس، ثُمَّ فَكَّها ورَكَّبَها تَركيبًا آخَرَ، فَبكى كُلُّ مَنْ في المَجْلِسِ، ثُمَّ فَكَّها وغَيَّرَ تَرْكيبَها، فَنامَ كُلُّ مَنْ في المَجْلِسِ، فَتَرَكَهُمُ الفارابِيُّ نِيامًا وخَرَجَ!

كاتبُ المنصور

كانَ أَبو جَعْفَرٍ المَنْصورُ خَليفَةً لِلدَّوْلَةِ العَبّاسيَّةِ، وصادَفَ أَنِ اجْتَمَعَ مَعَ المَهْدِيِّ ابْنِهِ، فَقالَ لَهُ:

«لَقَدْ عَزَمْتُ على أَنْ أُوَلّيكَ الأَمْرَ وأَرُدَّهُ إِلَيْكَ؛ فَقَدْ كَبِرْتُ وعَجَزْتُ عَنْ مُباشَرَةِ الْأَعْمالِ والنَّظَرِ فيها، وأَحْبَبْتُ الرّاحَةَ والدَّعَةَ والتَّفَرُّغَ لِلْعِبادَةِ والعِلْمِ.»

فَخَرَجَ المَهْدِيُّ إلى عُبَيْدِ اللهِ بْنِ يَسارٍ وكانَ كاتِبًا لِأَبي جَعْفَرٍ لِيُخْبِرَهُ بِالْأَمْرِ.

فَقالَ لَهُ عُبَيْدُ اللهِ: «اتَّقِ اللهَ ولا تُظْهِرْ لِأَميرِ المُؤْمِنينَ قَبولًا لِما عَرَضَهُ عَلَيْكَ، وإذا عاوَدَكَ في هَذا الْأَمْرِ فَقُلْ لَهُ: لا وَاللهِ، لا أَتَعَرَّضُ لِهَذا الْأَمْرِ ما أَبْقى اللهُ أَميرَ المُؤْمِنينَ لَنا، ولا أَنْهَضُ لَهُ ما حَييتُ، فإِنَّهُ أَمْرُكَ وحُكْمُكَ.»

فَلَمّا دَخَلَ المَهْدِيُّ على أَبي جَعْفَرٍ قالَ لَهُ: «يا أَبا عَبْدِ اللهِ، هَلْ فَكَّرْتَ فيما قُلْتُهُ لَكَ؟»

وإنَّما أَرادَ أَنْ يَمْتَحِنَ نَفْسَهُ، ويَسْتَبينَ أَمْرَهُ وقَصْدَهُ، فَقالَ لَهُ: «سُبْحانَ اللهِ! ما بي مِنْ قُوَّةٍ على ذَلِكَ، ويُبْقي اللهُ أَميرَ المُؤْمِنينَ ويُمَتِّعُنا بِحَياتِهِ، ويُعِزُّ سُلْطانَهُ، ويَنْصُرُ جُنْدَهُ.»

قالَ لَهُ أَبو جَعْفَرٍ: «سُبْحانَ اللهِ! وَمَنْ صَدَّكَ عَنِ الْأَمْرِ؟ ومَنْ ناظَرْتَ فيهِ؟»

قالَ لَهُ: «شاوَرْتُ مُعاوِيَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ يَسارٍ كاتِبَ مَوْلايَ.»

قالَ: «فَأَيُّ شَيْءٍ قالَ لَكَ؟»

فَعَرَّفَهُ المَهْدِيُّ ما قالَ لَهُ، فَأَطْرَقَ أَبو جَعْفَرٍ هُنَيْهَةً ثُمَّ قالَ: «عَلَيَّ بِمُعاوِيَةَ!»

واسْتَدْعى أَبو جَعْفَرٍ المَنْصورُ كاتِبَهُ مُعاوِيَةَ، فَلَمّا دَخَلَ عَلَيْهِ قالَ لَهُ: «ما هَذا الَّذي ناظَرَكَ فيهِ ابْنُ عَبْدِ اللهِ؟ وكَيْفَ رَأَيْتَ أَلّا يَقْبَلَ؟ ولِماذا نَصَحْتَ لَهُ بِهَذا الأَمْرِ؟

«لَقَدْ كُنّا، يا هَذا، في حاجَةٍ إلى أَنْ نُريحَ أَنْفُسَنا، وأَنْ يَحْمِلَ أَمْرَ

خِلافَتِنا غَيْرُنا، فَلَقَدْ وَهَنَ العَظْمُ، وتَقَوَّسَ الظَّهْرُ، واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا.»

سَأَلَ مُعاوِيَةُ: «أَأَصْدُقَكَ الأَمْرَ، يا مَوْلايَ، وأَنا آمِنٌ؟»

قالَ لَهُ: «هاتِ، ولِمَ لا تَصْدُقُني؟»

قالَ لَهُ: «إِنَّهُ واللهِ ما عَرَضْتَ عَلَيْهِ ما عَرَضْتَهُ وأَنْتَ تُريدُ أَنْ تُوَلِّيَهُ، وإِنَّما أَرَدْتَ أَنْ تَخْتَبِرَ عَقْلَهُ، وما كُنْتَ لِتَطيبَ نَفْسًا بِتَرْكِ ما أَنْتَ فيهِ.»

قالَ لَهُ أَبو جَعْفَرٍ المَنْصورُ: «وكَيْفَ تَوَهَّمْتَ ذَلِكَ؟»

قالَ: «لأَنّي سَمِعْتُكَ، يا مَوْلايَ تَقولُ: «إِنّي أَسْتَيْقِظُ بِاللَّيْلِ فَأَدْعو بالْكُتُبِ، فَأَضَعُها بَيْنَ يَدَيَّ، وأَدْعو بِوَصيفٍ فآمُرُهُ أَنْ يَدْلُكَ ظَهْري بِالدُّهْنِ، فَيَفْعَلَ ذَلِكَ، وأَنا مُقْبِلٌ على كُتُبي وتَدْبيرِ أَمْري، أَشْغَلُ نَفْسي وأُحاوِرُ عَقْلي، وأَبْحَثُ في أَمْرِ رَعِيَّتي، وهَذا قَصْدي وشُغْلي.» فَعَلِمْتُ أَنَّكَ، يا مَوْلايَ، لا تَدَعْ شَيْئًا يَكونُ مَوْقِعُهُ مِنْكَ هَذا المَوْقِعَ، وتُؤْثِرُ بِهِ غَيْرَكَ.»

قالَ أَبو جَعْفَرٍ: «صَدَقَ حَديثُكَ وحَدْسُكَ، ما كُنْتُ أَرى أَحَدًا

يَتَفَقَّدُ ما تَفَقَّدْتَهُ، وقَدْ أَصَبْتَ الرَّأْيَ وأَحْسَنْتَ القَوْلَ، بارَكَ اللهُ عَلَيْكَ!»

إياسٌ القاضي

باتَ أميرُ المُؤمِنينَ عُمَرُ بْنُ عبد العَزيز لَيْلَته تِلْكَ أرِقًا مُسَهَّدًا، لم يَغْمُضْ لَهُ جَفْنٌ، ولَمْ يَطْمَئِنّ لَهُ جَنْبٌ؛ فَلَقَدْ كانَ يَشْغَلُهُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ البارِدَةِ مِنْ لَيالي دِمَشْقَ أمْرُ اخْتِيارِ قاضٍ لِلْبَصْرَةِ، يُقيمُ بَيْنَ النّاسِ موازينَ العَدْلِ، ويَحْكُمُ فيها بِما أنْزَلَ اللهُ، ولا تَأْخُذُهُ في الحَقِّ رَهْبَةٌ ولا رَغْبَةٌ.

ولَقَدْ وَقعَ اختيارُ أميرِ المُؤمِنينَ على رَجُلَيْنِ اثْنَيْنِ كانا كَفرسَيْ رِهانٍ؛ فِقْهًا في الدّينِ، وصَلابَةً في الحقِّ. وكانَ كُلَّما وَجَدَ في أحدِهِما ميزَةً تُرَجِّحهُ عَلى صاحِبِهِ، وَجد في الآخَرِ ما يُقابِلُ هَذِهِ المِيزَةَ، فَلَمّا أصْبَحَ دَعا وَالِيَهُ عَلى العِراقِ «عَدِيَّ بْنَ أرْطاة» وكانَ يَوْمَئِذٍ عِنْدَهُ في دَمَشْق، وقالَ لَهُ:

«يا عَدِيُّ، اجْمَعْ بَيْنَ إياسِ بْنِ مُعاوِيَة والقاسِمِ بْنِ رَبيعَة الحارِسِيِّ، وكَلِّمْهُما في أمْرِ قَضاءِ البَصْرَةِ، وَوَلِّ أحَدَهُما عَلَيْهِ.»

فقال: «سمعًا وطاعَةً، يا أمير المُؤمنينَ.»

وجَمَع عَدِيٌّ بَيْنَ إياس بْن مُعاوِيَةَ وَالقاسِمِ بْنِ رَبيعَة، وقال: «إنّ أميرَ المُؤمنينَ - أطالَ اللهُ بَقاءهُ - أمَرَني أنْ أُوَلّي أحَدَكُما قَضاءَ البَصْرَةِ. فَماذا تَرَيانِ؟»

فقالَ كُلٌّ مِنْهما عن صاحِبِهِ إنّه أوْلى مِنْهُ بِهذا المَنْصِب، وذكر مِنْ فَضْلِهِ وعِلْمِهِ وفِقْهِهِ ما شاءَ اللهُ أنْ يَذْكُرَ.

فَقال عَدِيٌّ: «لَنْ تَخْرُجا مِنْ مَجْلسي هَذا حَتّى تَحْسِما هَذا الأمْرَ.»

فَقالَ لَهُ القاسِمُ: «أيُّها الأميرُ، وَاللهِ الَّذي لا إلَهَ إلّا هُوَ إنّ إياسًا أفْقَهُ مِنّي في دينِ اللهِ، وأعْلَمُ مِنّي بِالقَضاءِ، وأنْصفُ مِنّي في الحُكْمِ والإفْتاء. فإنْ كُنْتُ كاذِبًا في قَسَمي هَذا فَما يَحِلُّ لَكَ أنْ تُوَلِّيَني القَضاءَ وأنا أكْذِبُ، وإنْ كُنْتُ صادقًا فَلا يَجوزُ لَكَ أنْ تَعْدِلَ عَنِ الفاضِلِ إلى المَفْضولِ.»

فَالتَفَتَ إياسٌ إلى الأَميرِ وَقالَ: «أيُّها الأميرُ، إنَّكَ جِئْتَ بِرَجُلٍ ودَعَوْتَهُ إلى القَضاءِ، فأوْقَفْتَهُ عَلى حافَةِ جَهَنَّم، فَنَجّى نَفْسَهُ مِنْها

بِيَمين كاذِبَةٍ لا يَلبَثُ أنْ يَسْتَغْفِرَ اللهَ مِنها، ويَنْجوَ بِنَفْسِهِ مِمّا يَخاف.»

قالَ لَهُ عَدِيٌّ: «إنّ مَنْ يَفْهَمُ مِثْلَ فَهْمِكَ هَذا لَجديرٌ بِالقَضاءِ.» ثمّ وَلّاهُ قَضاءَ البَصْرَةِ.

ولَمّا وُلِّي إياسٌ القَضاءَ حَكَمَ بَيْنَ رَجُلَيْنِ تَقاضَيا عِنْدَهُ، فَادَّعى أحَدُهُما أنَّه أوْدَعَ لَدى صاحِبِهِ مالًا، فَلَمّا طَلَبَهُ مِنْهُ أنْكَرَهُ، ورَفَضَ أنْ يُعيدَهُ إليه، فَسَأل إياسٌ الرَّجُلَ المُدَّعى عَلَيْهِ عَنْ أمْرِ الوَديعَةِ فَأَنْكَرَها، وقال:

«إنْ كانَ لِصاحِبي دَليلٌ فَلْيَأْت بِهِ، وإلّا فَلَيسَ عَلَيَّ إلّا اليَمينُ.»

فَالْتَفَتَ إياسٌ إلى المُودِعِ وقالَ لَهُ: «في أيِّ مَكانٍ أوْدَعْتَهُ المالَ؟»

قالَ: «في مَكانِ كَذا... ناحيةَ كذا.»

فقالَ: «وماذا يُوجَدُ في ذَلِكَ المَكانَ؟»

فقال: «شَجَرَةٌ كَبيرةٌ جَلَسْنا تَحْتَها، وتَناوَلْنا الطَّعامَ مَعًا في ظِلِّها. ولَمّا هَمَمْنا بِالانْصراف دَفَعْتُ إلَيْهِ المالَ.»



فَقالَ لَهُ إياسٌ: «انْطَلِقْ إلى المَكانِ الذي فيه الشَّجرة، فلَعَلكَ إذا أتَيْتَها ذَكَّرتْكَ أيْنَ وَضَعْتَ مالَكَ، ونَبَّهتْكَ إلى ما فَعلْتَه بِهِ، ثُمَّ عُدْ إليَّ لِتُخْبرَني بِما رَأيْتَ.»

انْطَلَقَ الرَّجُلُ إلى المَكانِ، وقالَ إياسٌ لِلمُدَّعى عَلَيْهِ:

«اجْلِسْ إلى أن يَجيءَ صاحِبُكَ.»

فَجَلَس الرَّجُلُ، ثُمَّ الْتَفَتَ إياسٌ إلى مَنْ عِنْدَهُ مِنَ المُتقاضين، وأخَذَ يَقْضي بَيْنَهُمْ وهُوَ يَرْقَبُ الرَّجُلَ بِطَرْفٍ خَفِيٍّ حتّى إذا رَآهُ قَدْ سَكَنَ واطْمأنَّ، الْتَفَتَ إلَيْهِ وبادَرَهُ قائلًا:

«أتُقَدِّرُ أنْ صاحِبَكَ قَدْ بَلَغَ المَوْضعَ الذَّي أوْدَعَكَ فيه المالَ؟»

فقالَ الرَّجُلُ مِنْ غَيْر رَوِيَّةٍ: «كَلّا.. إنَّهُ بَعيدٌ عَنْ هُنا!»

قَالَ لَهُ إياسٌ: «يا عَدُوَّ اللهِ، تُنْكِرُ المالَ وتَعْرِفُ المَكانَ الذَّي أخَذْتَهُ فيه؟»

عِندها بُهتَ الرَّجُلُ واعْتَرَفَ بِخيانَتِهِ الأمانَةَ، فَحبَسَهُ حَتّى جاءَ صاحِبُهُ، وأمَرَهُ بِرَدِّ الوَديعَةِ إلَيْهِ.

وشاعَ في زَمَن «إياس» أيْضًا صيتُ رَجُلٍ يُظهِرُ لِلنّاس التَّقوى

والوَرَع، حَتّى كَثُرَ الثَّناءُ عَلَيْهِ، واتَّخَذَهُ بَعْضُ النّاسِ أمينًا لَهُمْ يَأْتَمِنونَهُ إذا سافَروا، ويَضَعونَ عِنْدَهُ أشياءَهُمْ وحاجاتِهِم، حَتّى بَلَغَ الأمْرُ أن جَعَلَه بَعْضُ النّاسِ وَصِيًّا على أبنائِهِم إذا أحسّوا بِدُنُوِّ أجَلِهِمْ.

وتصادَفَ أنْ وَضَعَ رَجُلٌ عِنْدَهُ مالًا حَتّى ضاقَتْ بِهِ سُبُلُ الحَياةِ فَاحتاجَ إلى مالِهِ، فَذَهَبَ إلى الرَّجُلِ شاكِرًا صَنيعَهُ، حامِدًا لَهُ حُسْنَ أَمانَتِهِ وصِدْقَ دينِهِ، فَما كانَ من الرَّجُلِ إلّا أنْ أنْكَرَ المالَ، فَمضى إلى إياسٍ القاضي شاكِيًا لَهُ ضَياعَ مالِهِ.

فقال إياسٌ لِلرَّجُلِ: «أعَلِمَ صاحِبُكَ أنَّكَ تُريدُ أنْ تَأتِيَني؟»

قال الرَّجل: «لا!»

قال إياسٌ: «إذن فَانْصَرِفْ، وَلا تَقُلْ إنّك جِئْتَني. وعُدْ إليَّ غدًا.»

ثُمَّ أرْسَلَ إياسٌ إلى الرَّجُلِ المُؤتَمَنِ، وقالَ لَهُ: «سَيِّدي، لَعَلَّكَ تَعْرِفُ فُلانَ بنَ فُلانٍ والذي تُوفِّي عَنْ ثَلاثِ بَناتٍ، لا كافِلَ لَهُنَّ، وقَدْ تَركَ لَهُنّ مالًا كثيرًا وخَيْرًا وفيرًا، وقد رَأيْتُ أَنْ أُودِعَهُ لَدَيْكَ

ثِقةً فيك وكَرَمًا لأمانَتِكَ.»

قالَ الرَّجُلُ المُؤْتَمَنُ: «على الرَّحْبِ والسَّعَةِ، يا قاضي القُضاة.»

قال إياسٌ: «لكِنّي أراكَ أنْ تُمْهِلَني لِبَعْدِ غَدٍ، وأَحْضِرْ مَعَكَ حَمّالينَ يَحْملونَهُ.»

وفي اليَوْم التّالي جاءَ الرَّجُلُ المُشْتكِي، فقالَ لَهُ إياسٌ:

«انْطَلِقِ الآنَ إلى صاحِبِكَ الَّذي أوْدَعتَ عِنده مالَكَ، واطْلُبْ إلَيْهِ المالَ ثانِيَةً، فإن أنْكَرَهُ فَقُلْ له سَوْفَ أشْكوكَ إلى قاضي القُضاة إياس».

فَأتاهُ الرَّجُلُ وطَلَبَ إلَيْه مالَهُ، فَرَفَض وأنْكَرَ، فَقالَ الرَّجُلُ: «إذن سَأشْكوكَ إلى إياسٍ القاضي، فَلَمّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ دَفَع إلَيْهِ المالَ، فَرَجَعَ الرَّجُلُ إلى إياس وقالَ:

«لَقَدْ أعْطَاني صاحبي حَقّي، وجَزاكَ ربّي كُلَّ خَيْرٍ، يا قاضي القُضاة.»

وإنَّما جاءَ الرَّجُلُ المُؤْتَمَنُ إلى إياسٍ في مَوْعِدِه ومَعَهُ

الحمَّالون، فَزَجَرهُ وفَضَحهُ، وقالَ لَهُ: «أَنْت عَدوٌّ اللهِ، لَقد جَعَلْتَ الدّينَ مَصْيَدةً لِلدُّنيا.» وأمَرَ بحَبْسِهِ وجَلْدِهِ.

رَحِمَ اللهُ «إياسًا» القاضي، ورَحِمَ مَنْ وَلّاه أمْرَ القَضاءِ.

زَوْجَةُ عُرْوَةَ

عُرْوَةُ بْنُ الوَرْدِ، شاعِرٌ جاهِلِيٌّ مَعْروفٌ، ومِنَ الفُرسانِ الأَجْوادِ المَشْهورينَ، أصابَ امْرأةً مِنْ بَني كنانَةَ يُقالَ لَها سَلْمى، فَأعْتَقَها واتَّخَذَها لِنَفسِه، فَمَكَثَتْ عِنْده بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً، وَوَلَدَتْ أوْلادًا. وكانَ لا يَشُكُّ أبَدًا في أنَّها أرْغَبُ النّاسِ فيهِ، وأحاطَها بِالرِّعايَةِ، وبادَلها بِالحُبِّ عِشْقًا وكرمًا، حتّى ألَحَّتْ عَلَيْه في الحَجِّ قائِلَةً:

«لو حَجَجْتَ بي، فَأمُرُّ عَلى أهْلي وأراهُمْ.»

فَحَجَّ بِها، فأتى مَكَّةَ ثُمَّ أتى المَدينَةَ، وكانَ يُخالِطُ مِنْ أهْلِ يَثْرِبَ بَني النَّضير، وكانَ قَوْمُ سَلْمى يُخالِطون بني النَّضير. حَتّى آتوها وهي عِنْدَهُمْ؛ فقالَتْ لَهُمْ سَلمى:

«إنه خارِج بي قبلَ أنْ يَخْرُجَ الشَّهْرُ الحرامُ، فتعالَوا إلَيْهِ، وأخْبروهُ أنَّكم تَسْتحيونَ أن تكونَ امرأةٌ مِنْكم صَحيحةُ النَّسَبِ مَعْروفَةُ الأصل سَبِيَّةً. وافْتدوني مِنْهُ، فإنَّه يَرى ألّا أختارَ عَلَيْهِ

أحدًا، فَقَدْ مَلأَ حُبّي شَغافَ قَلْبِهِ، وأَنَّه لا مَحالَةَ بارٌّ بِطَلَبِكمْ سامِعٌ لِقولِكُمْ.»

فَأَتَوْهُ فَسَقَوْهُ الشَّرابَ كَرَمًا حتّى ثَمِلَ، ثُم قالوا لَهُ:

«يا عُرْوَةُ، هَلْ لَكَ أن تُفادِنا بِصاحِبَتِكَ، فَإِنَّها مَعروفةُ النَّسَبِ فينا وإنّا عَلَينا سُبَّةَ أن تكونَ ابْنَتُنا سَبيَّةً، وهي إن صارَت إلينا وأَرَدْتَها، ورَغِبتَ فيها، فهِيَ عائِدةٌ إِلَيْكَ لا مَحالةَ، ولوَلَدِها.»

قال لَهُمْ عُرْوَةُ: «ذَاكَ لَكُمْ؛ ولَكِنْ لي الشَّرطُ في أنْ تخيِّروها.»

وكانَ لا يَشُكُّ في حُبِّها لَهُ، وأُلفَتِها بِهِ، ورَغْبَتِها في وَلَدِها، فَإِن اخْتارَتْهُ انْطَلَقتْ معه إلى وَلَدِها، وإن اخْتارَتْهُمْ انْطَلَقوا بِها.

قالوا: «ذاكَ لَكَ، يا عُرْوَةُ!»

قال: «لكِنْ دَعوا ذلَكِ إلى غَدٍ.»

فَلَمّا كانَ الغَدُ جاءُوهُ، فَامْتَنَعَ مِنْ فِدائِها.

فقالوا لَهُ: «قد فاديْتَنَا بِذَلِكَ مُنْذُ البارِحَة.» وشَهِدَ بِذَلِكَ جَماعَةٌ مِمَّنْ حَضَرَ.

فلم يَقْدِرْ عُرْوَةُ على الامتِناع والمُعارَضَةِ وَفادَها، فَلَمّا فَعَل

اخْتارَتْ أهْلَها، ثُمَّ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ، فَقالَتْ:

«يا عُرْوَةُ، أمَّا إنِّي أقولُ فيكَ - وقَدْ فارَقْتَني - الحَقَّ؛ وَاللهِ ما أعْلَمُ امْرأَةً مِنَ العَرَبِ ألْقَتْ سِتْرهَا عَلى بَعْلٍ (زَوْجٍ) خَيْرٍ مِنْكَ؛ فَأَنْتَ أغَضُّ طَرَفًا، وأقَلُّ فُحْشًا، وأجْوَدُ يدًا. وما مَرَّ عَليَّ يَوْمٌ مُنْذُ كُنْتُ عِنْدَكَ إلّا والمَوْتُ أحَبُّ إلَيَّ مِنَ الحَياةِ بَيْنَ قَومِك؛ لأنّي لَمْ أكُنْ أشاءُ أنْ أسْمَعَ امْرأَةً مِنْ قَوْمِك تَقولُ: قالتْ أمَةُ عُرْوَةَ كَذا وكَذا.. فَارْجِعْ راشدًا إلى وَلَدِك وأَحْسِنْ إليْهِمْ.»

ثُمَّ تَزَوَّجَ رَجُلٌ مِنْ سَلمى، فَقال لَها يَوْمًا:

«يا سَلْمى، أَثْني عَليَّ كَما أثْنيْتِ على عُرْوَةَ.»

قالَتْ: «لا تُكَلِّفْني بِما لا أريدُ؛ فإنّي إن قُلْتُ الحَقَّ غَضِبتَ.»

قال: «عَزَمْتُ عَلَيْكِ لِتَفْعَلي!»

فَلَمّا خَرَجَ الرَّجُلُ وجَلَسَ في مُنْتَدى القوم، أَقْبَلَتْ سَلْمى وَوَقفَتْ وقالَتْ:

«أنْعِموا صَباحًا! إنّ زَوْجي هَذا عَزَمَ عَليَّ أنْ أثني عَلَيْهِ كَما أثْنَيْتُ على عُرْوَةَ، وأنا أُثني عَلَيْهِ بِما أَعْلَمُ، فإنَّ في الكَذِبِ نَقيصَةً.

واللهِ إنَّك لَتنامُ لَيْلَةَ تَخافُ، وتَشْبَعُ لَيْلَةَ تُضافُ، وما تُرْضِي الأَهْلَ ولا الأَضْيافَ!» ثم انْصَرفَتْ.

قالَ القَوْمُ للزَّوجِ: «ما كانَ أغْناكَ عَنْ هَذا القَوْلِ مِنْها! أَلا تَعْرِفُ أنَّها لا تَكْذِبُ أبدًا، وفي الكَذِبِ نَقيصةٌ؟»

في
مَجْلِسِ الأَميرِ

حُكِيَ عن أَبي الشَّرقِيِّ بن القَطّامِيِّ وكانَ شاعِرًا مُجيدًا، وافِرَ الأدَبِ، عالمًا بِالأنساب، وكانَ المَنْصورُ قد ضَمَّهُ إلى المَهْدِيِّ وأمرَه بحِفْظ أَيَّام العربِ، ومَكارِمِ الأَخْلاقِ، ودِراسَةِ الأَخْبارِ، وقراءَةِ الأَشْعارِ.

في لَيْلَةٍ طَلَب المَهْديُّ إلى أَبي الشَّرقيِّ أَنْ يُريحَ قلبَه بِشيءٍ يُلهيه.

قال أبو الشَّرْقِيِّ:

ذَكَروا أَنَّه كانَ في مُلوكِ الحيرَةِ مَلِكٌ لَهُ نَديمان، قَدْ نَزَلا مِنْ قَلْبِهِ مَنْزِلَةً مَكينَةً. وأَخَذا مِنْ وِقْتِهِ مُدَّةً طَويلَةً، وكانَ لا يُصْدِرُ أمرًا إلّا بَعْدَ رَأْيِهما. وعاشَ المَلِكُ في ذَلِك دَهرًا، حَتّى غَلَبَ عَلَيْه

الشَّرابُ يَوْمًا، فأزاحَ عَقْلَهُ وأضاعَ لُبَّهُ، فَدَعا بسَيْفِهِ وشَدَّ عَلَيْهِ، فَقَتَلَهما وغَلَبَتْهُ عَيناهُ فَنامَ.

ولَمّا أَصْبَحَ سَأَلَ عَنْهُما فَأُخْبِرَ بما كانَ مِنْهُ، فَأَكَبَّ على الأَرْضِ نَدمًا، وامْتَنَع عَنِ الطَّعامِ والشَّرابِ وَقْتًا، ثُمَّ حَلَفَ أَلّا يَقْرَبَ الشَّراب عُمْرًا، وبَنى لَهُما قَبْرَيْنِ عَظيمَيْنِ، وسَنَّ أَلّا يَدْخُلَ أحدٌ المَدينَةَ قَبْلَ أنْ يَطوفَ بِهِما. وكانَ مِنْ عادَةِ أَهْلِ الحيرَةِ أنَّ المَلِكَ إذا سَنّ سُنَّةً تَوارَثوها، وأَحْيوا ذِكْرَها، وجَعَلوها عَلَيْهِمْ حُكْمًا لازِمًا، وفَرْضًا واجِبًا.

ومَرّ عَلى النّاسِ وَقْتٌ لا يَدْخُلونَ المَدينَةَ قَبْلَ الطَّوافِ بالقَبرَينِ، وذاتَ يَوْمٍ، أَحَبَّ أَعْرابِيٌّ أنْ يَدْخُلَ المَدينَةَ، فَمَرَّ بالقَبرَينِ دونَ أن يَطوفَ بِهِما حَتّى رُفِعَ أَمْرُهُ إلى المَلِكِ، وأُخْبِرَ بِقِصَّةِ الأَعْرابِيِّ.

قالَ المَلِكُ للأَعْرابِيِّ: «ما مَنَعَكَ أَنْ تُقَدِّمَ واجِبَ الدُّخولِ لِلْمَدينَةِ عَن الطَّوافِ بالقَبرَينِ.»

أَجاب الأعرابِيُّ: «فَعَلْتُ، يا مَولايَ، لَكِنَّ عُمّالك كَذَبوا عَلَيَّ.»

قال المَلِكُ: «الباطِلُ ما قُلْتَ، أَيُّها الأعْرابيُّ. أَنْتَ مَقتولٌ ولَكَ عِنْدَنا حقّانِ قَبْلَ قَتْلِكَ، فَانْظُرْ ماذا ترى؟»

قالَ الأَعْرابيُّ: «إذا كانَ لا بُدَّ مِنْ قَتْلي، يا مَوْلايَ، فإني أَحْتَكِمُ في حَقّي الأَوَّلِ أنْ أَضْرِبَ رَقَبَةَ الملِكِ بِعَصاي هَذِهِ.»

قَالَ المَلِكُ: «يا جاهِل؛ لو حَكْمتَ بأَنْ أُجْرِيَ خَيرًا وَفيرًا، ورِزْقًا كَثيرًا عَلى مَنْ تُخَلِّفُ لَكانَ خَيْرًا لَكَ ولَه.»

قال الأَعرابيُّ مُصِرًّا: «ما أَحْكُمُ إلّا بِضَرْبِ رَقَبَةِ المَلِكِ بِعَصاي!»

قالَ المَلك لِوُزَرائِهِ: «ما تَرونَ فيما حَكَمَ بِه هَذا الجاهِلُ؟»

قالوا: «نَرى أنّ هَذِه سُنَّةٌ، وأَنْتَ أعْلَمُ بِما في نَقْضِ السُّنَنِ مِن العارِ والنّارِ والذَّنْبِ العَظيمِ، وأيضًا إنَّك ما نَقَضْتَ سُنَّةً إلّا ونَقَضْتَ أُخْرى، ثُمَّ يَكونُ ذَلِكَ لِمنْ بَعْدَكَ كَما كانَ فَتَبْطُلُ السُّنَنُ، ويَضعُفُ المُلْكُ، وتَنْهارُ المَدينَةُ.»

قالَ المَلِكُ: «فَرَغِّبُوا الأَعْرابِيَّ إذن أنْ يَطْلُبَ شَيئًا غيرَ ذَلِك، فإنّي أجيبُهُ إلى ما شاءَ، ولَوْ بلغ حُكْمُهُ شَطْرَ مالي.»

قالَ الأَعْرابيُّ: «ما أَحْكُمُ إلا بِضَرْبِ رَقَبَةِ المَلِكَ بِعَصاي»

عَنْدئِذٍ قَعَد المَلِكُ للأَعْرابيِّ مَقْعدًا عامًّا، وعاجَلَ الأعْرابيُّ المَلِكَ بِضَرْبَةٍ أوْهَنَتْهُ؛ فَخَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ.

وجَعَلَ أَهْلُ المَدينَةِ يَهْتِفونَ لِلْمَلِكِ ويَدْعونَ لَهُ بِبَقاء مُلْكِهِ.

ولَمّا أفاقَ المَلِكُ وتكَلَّمَ، سَأَلَ عَنِ الأَعْرابيِّ فَقيلَ لَهُ إنَّهُ مَحْبوسٌ، فَسُرَّ المَلِكُ لِذَلِكَ، وحَدَّثَ نَفْسَهُ قائِلًا: «إني قاتِلُهُ لا مَحالَةَ.» ثُمَّ أمَرَ حُرّاسَهُ بِأن يَمثُلَ الأعْرابيُّ بَيْنَ يَدَيْهِ، تَنفيذًا لِحَقِّهِ الثّاني قَبْلَ قتلهِ.

قالَ الملكُ: «وَفَّيْتُ لَكَ، وضَرَبْتَ عُنُقي بِالعَصا، بَقِي لَكَ حَقٌّ فَاحْكُمْ بِهِ فإني قاتِلُكَ لا محالَةَ.»

قال الأعرابيُّ: فإن كانَ لا بُدّ مِنْ قَتْلي، يا مَوْلاي، فإنّي أَحْكُمُ بِأَنْ أَضْرِبَ عُنقَكَ مَرَّةً أُخرى بِالعَصا.»

فلمّا سَمِعَ المَلكُ ذلكَ خَرَّ مِنَ الجَزعِ والخَوْفِ، ثم قالَ غاضِبًا: «وَيْلَكَ، يا أَيُّها الأعرابيُّ، منّي!»

قال الأَعرابيُّ: «تِلْكَ سُنَّتُكَ، يا مَوْلاي.»

قال المَلِكُ: «أيّها الجاهلُ، دَعْ ما لا يَنْفَعُك، فإنَّه لَمْ يَنْفَعْكَ مِنْهُ ما مَضى، واحْكُمْ بِغَيرِه أُنَفِّذْهُ لَكَ كائِنًا ما كانَ!»

قالَ الأَعْرابيُّ: «ما أَرى حَقّي إلّا ضَرْبَةً أُخرى.»

قال المَلِكُ لِوزَرائِهِ: «ما تَرَوْن؟»

قالوا: «هَذا حَقُّهُ!»

قال المَلِكُ: «وَيْلكُمْ! إنْ ضَرَبَني ثانِيَةً لَنْ أُفيقَ بَعْدُ.»

قالوا: «فَما عِنْدنَا حيلَةٌ! تِلْكَ سُنَّتُكَ، يا مَوْلانا!»

فَلَمّا رَأى المَلِكُ ما أشْرَفَ عَلَيْهِ (اقْتَرَبَ مِنْهُ) سَأَلَ الأَعْرابيَّ:

«أخْبرني – أَلَم تَقُلْ لي إنَّك قَدْ مَرَرْتَ بِالقَبْرَيْن، وأَظْهَرْتَ لهما واجِبَ الاحْترامِ والتَّقْديس؟»

أجابَ الأعْرابيُّ: «بَلى، يا مَوْلاي!»

سَأَلَهُ المَلِكُ ثانية: «أَلَمْ تَقُل لي بأنَّ عُمّالي كَذَبوا عليك وإنَّك فَعَلْتَ؟»

أَجابَ الأعرابيُّ: «بَلى، يا مَوْلاي!»

فَوَثَبَ المَلِكُ مِنْ مَجْلسِهِ، وقَبَّلَ رَأْسَ الأَعرابيِّ قائلًا: «أَشْهَدُ

أَنَّكَ صادِقٌ، وأنّ عُمَّالي كَذَبوا عَلَيْكَ، وقَدْ وَلَّيْتُكَ مَوْضِعَهمْ، وجَعَلْتُ أَمْرَهُمْ إِلَيْك.»

عِنْدَئِذٍ دَوَّتِ القاعَةُ بالضَّحِكِ والتَّصْفيق، وقالَ المَهْديُّ للشّاعر أَبي الشّرْقيِّ بن القَطّامِيِّ: «أَحْسَنْتَ، وَاللهِ، قَوْلًا أَيُّها الشَّاعِر! وما أَعْجَبَ هَذا المَلِكَ وأَعْجَبَ أفعالَهُ!»

جَزاءُ الإحْسان

حَكى صاحِبُ شُرطةِ أميرِ المُؤمنينَ الخَليفَةِ المَأمونِ، فَقالَ:

دَخَلْتُ المَجْلِسَ يَوْمًا عَلى أميرِ المُؤمنينَ بِبَغْدادَ، فَإذا بِرَجُلٍ مُكَبَّلٍ بِالحديدِ بَيْنَ يدَيْهِ، فَلمّا رَآهُ، قال لي: «يا عَباس!»

قُلْتُ: «لَبَّيْكَ، يا أمير المُؤمنينَ!»

قال: «خُذْ هَذا إلَيْكَ، واحْتَفِظْ بِهِ، وبَكِّر بِهِ إليَّ في غدٍ!»

فَدَعَوْتُ جَماعةً فَحَملوهُ ولَمْ يَقْدِرْ أنْ يَتَحرَّكَ.

قُلْتُ في نفسي: «مع هَذِهِ الوَصِيَّةِ الَّتي أوْصاني بِها أميرُ المُؤمنينَ مِنَ الاحتِفاظِ بِهِ يَجِبُ أنْ يَكونَ معي في بَيْتي.» وفَعَلْتُ!

ولَمّا خَلا الجَوُّ بي وبِهِ جَعَلْتُ أسْألهُ عَنْ حالِهِ وأَمْرِهِ ومِنْ أيْنَ جاءَ، وما الذي أحْدَثَهُ.

قال: «أنا مِنْ دِمَشْقَ.»



فَقُلْتُ: «جَزى اللهُ دمشقَ وأهْلَها خَيْرًا! فَمَنْ أنْتَ مِنْ أهْلِها؟»

قالَ: «وعَمَّنْ تَسْأل؟»

فَقُلْتُ لَهُ: «أتعْرِف فُلانًا؟»

قالَ: «نَعْم! وَلكِن كَيْفَ عرَفْتَهُ؟»

قُلْتُ: «كُنْتُ مَعَ بَعْض الوُلاةِ بِدِمَشْقَ، حَتّى بَغى بَعْضُ أَهْلِها، وخَرَجوا عَلَيْنا، فَهَرَبْتُ مع بَعْض أصْحابي. وبَيْنما أنا هارِبٌ في الدُّروب إذا بِجَماعَةٍ يَعْدُون خَلْفي، فما زِلْتُ أعْدُو أمامَهُمْ وهُمْ وَرائي حَتَّى فُتُّهُم (سَبقْتُهُم)؛ فَمَرَرْتُ بِهذا الرَّجُلِ الَّذي ذَكَرْتُهُ لَكَ وهُو جالِسٌ على بابِ دارِه، فَقُلْتُ لَهُ:

«أغِثْني أغاثَكَ اللهُ.»

قال: «لا بَأْسَ عَلَيْكَ! ادْخُل الدّارَ.»

فَدَخَلْتُ واتَّخَذْتُ مكانًا قَصِيًّا، وَوقَفَ الرَّجُلُ على بَابِ الدّارِ؛ فَما شَعَرْتُ إلّا وقدَ دَخَلَ والرِّجالُ مَعَهُ يَقولونَ:

«هو وَاللهِ عِنْدَكَ!»

قال: «دُونَكُمُ الدّارَ، فَتّشوها.»

ولَمّا أعْيَتْهُم الحِيَلُ في الوُصولِ إليَّ خرجوا، وخَرج الرَّجُلُ وجَلسَ على بابِ دارِه ساعَةً، وأنا في مكاني قائِمٌ أَرتجِفُ، ما تَحْمِلُني رِجْلايَ مِنْ شِدَّة الخَوْفِ؛ حَتّى دَخَلَ الرَّجُلُ عَلَيّ وقال: «لا تَخَفْ، قد صَرفَ اللُّه عنك شَرَّهُم، وصِرْتَ إلى الأمن والدَّعَةِ أقْرَبَ.»

قُلْتُ لَهُ: «جَزاكَ اللهُ خَيْرًا.»

ثُمَّ ما زالَ يُصاحِبني ويُكرمُني، ويَسْمُرُ مَعي ويُواسيني، ويُخَفِّف عني ويُصَبِّرني حَتّى أقمت عِنْدَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ في أَرْغَدِ عَيشٍ وأَهْنَئِهِ إلى أَن سَكَنَتِ الفِتْنَةُ وهَدَأَتْ وزالَ أَثَرُها، فَاسْتَأذَنْتُهُ في الخُروجِ فتَلَكَّأَ عَلَيَّ في الرَّدِّ، يُماطِلُني ويُصادِقني، ويُحْسِنُ ضِيافَتي ويُكْرِمني، وهُوَ مَعَ هَذا لا يَعْرِفُ اسْمي، وَلا يُخاطِبُني إلّا بالكُنْيَةِ، ثُمَّ قالَ بَعْدَ وَقْتٍ:

«عَلامَ تَعْزِمُ؟»

قُلْتُ: «على التَوَجّهِ إلى بَغْداد.»

قالَ: «القافِلَةُ بَعْدَ ثَلاثَةِ أَيّامٍ، وهاأنَذا قَدْ أعْلَمْتُك.»

قُلْتُ: «إنَّكَ تَفَضَّلتَ عَلَيَّ طَوالَ هَذِهِ المُدَّةِ، ولَكَ عَليَّ عَهْدٌ أَلّا أَنْسى لَكَ هَذا الفَضْلَ ولأَرُدَّ لَكَ الجَميلَ ما اسْتطَعْتُ.»

ولَمّا حانَ يَوْمُ خروجِ القافِلَةِ جاءني السَّحَرَ، وقال لي:

«قُمْ، فإنَّ القافِلَةَ تَخْرُجُ السّاعَةَ.»

وأقْبَلَ يَعْتَذِرُ لي عَنْ سوءِ ضِيافَتِهِ، وتَقْصيرِ أَمْرِهِ، ورَكِبَ مَعي يوَدِّعُني.

انْصرَفْتُ إلى بَغْدادَ وأنا أَتوقّعُ خَبرَهُ؛ لأَنّي بِعَهْدي لَهُ في مُجازاتِهِ ومُكافأتِهِ، واشْتَغَلْتُ مَعَ أَميرِ المُؤمنينَ، فلَم أَتفَرَّغْ لأَنْ أُرْسِلَ إلَيْه مَنْ يَكْشِفُ خَبَره لي، فَلِهذا أَسْأَلُكَ عَنْهُ؟

فَلَمّا سَمِعَ الرَّجُلُ الحَديثَ قالَ: «لَقَدْ أمْكَنَكَ اللهُ مِنَ الوَفاءِ لِهَذا الرَّجُلِ، وأَنْ تُجازِيَه عَلى فِعْلِهِ ومَعْروفِهِ مَعَكَ.»

قُلْتُ: «وكَيْفَ ذَلك.»

قالَ: «أنا ذَلِكَ الرَّجُلُ، يا سيِّدي. وإنَّما الضُّرُّ الَّذي أنا فيه غَيَّرَ حَالي، وما كُنْتَ تَعرِفُهُ عنّي.»

فَما تَمالَكْتُ نَفْسي أنْ قُمْتُ وقَبَّلْتُ رَأسَهُ، ثُمّ قُلْتُ لَهُ:

«ما الَّذي صَيَّرَ حالَكَ إلى ما أَرَى؟»

قال: «هاجَتْ بِدِمَشْقَ فِتْنَةٌ مِثْلَ الفِتنَةِ الَّتي كانَتْ في أَيّامِكَ، فَنُسِبَتْ إليَّ، وبَعَثَ أميرُ المُؤمنينَ بِجيوشٍ لإصْلاحِ البِلاد، وأُخِذْتُ أنا وضُرِبْتُ إلى أنْ أَشْرَفْتُ على المَوْتِ، وقُيِّدتُ وَبُعِثَ بي إلى أميرِ المُؤمِنينَ، وأَمْري كما تَرى عِنْدَهُ عَظيمٌ، وخَطْبي لَدَيْهِ جَسِيمٌ، وهو قاتِلي لا مَحالَةَ!»

قُلْتُ في نَفسي: «أكْرَمَني الرَّجُلُ، وأحْسَنَ ضِيافَتي وأَنا أَحْبِسُهُ في بَيْتي لِيُقْتَلَ غَدًا! وَاللهِ لَأصْنَعَنَّ خيرًا رادًّا لِمَعْروفِهِ وحُسنِ خُلُقِهِ.»

ثُمَّ أَحْضَرْتُ حَدّادًا في اللّيْلِ فَفكّ قُيودَ الضَّيْفِ، وأزالَ ما كانَ فيهِ مِنَ الأنْكالِ، وأَدْخَلْتُهُ لِلاسْتِحْمام، وأَلْبَستُهُ خَيرَ الثِّيابِ وسَيَّرْتُهُ إلى حالِ سَبيلِهِ، لَكِنَّهُ تَعَجَّلَ عَلَيَّ قائِلًا:

«إنَّ ذَنْبي عِنْدَ أميرِ المُؤمِنينَ عَظيمٌ، وخَطْبي عِنْدَهُ جَسيمٌ. إنْ أَنْتَ تَعَلَّلْتَ بِهَرَبي سَيَبْعثُ في طلبي، فَأَهْلكُ وتَهْلَكُ أَنْتَ أَيْضًا.»

فَقُلْتُ:

«انجُ بِنَفسِكَ، ودَعْني أُدَبِّرُ أمْري، فَواللهِ لأنْ أُقْتَلَ وتَنْجو خَيْرًا لي مِنْ أنْ أَجُرَّكَ غدًا لِبَيْتِ الخِلافَةِ عَلى كَرَمِ خُلُقِكَ وجَميلِ صُنْعِكَ مَعي.»

قَال: «واللهِ، لا أَبْرَحُ بَغدادَ حَتّى أعْلَمَ ما يَكونُ مِنْ خَبَرِكَ؛ وأنّي في مَوْضِعِ كذا مَتى احْتَجتَ إلَيّ أَسْرَعْتُ في حُضُوري إلى دارِ الخِلافَةِ.»

قُلْتُ: «إنْ كانَ الأمْرُ عَلى ما تَقُول، فَلْتكُنْ في مَوْضعِ كَذا، فإنْ أنا سَلِمتُ في غَدٍ أعْلَمْتُكَ، وإنْ أنا قُتِلْتُ فَقَدْ وَقَيْتُك بِنَفْسي كَما وَقَيْتَني.»

وتَجَهّزْتُ في الصُّبْحِ لِلقاءِ الخَليفَةِ، وأَعْدَدْتُ كَفَني، وهَيَّأْتُ نَفْسي لِلْقَتْلِ في سَبيلِ إنْقاذِ الرَّجُلِ. ولَمْ تَمُرَّ دقائِقُ حَتّى دَوّى بابُ البَيْت بطَرقاتٍ مُتَتالِيَةٍ مُتعاجِلَةٍ، فَقُمْتُ مُسْرعًا، فإذا بِرُسُلِ الخَليفَةَ المَأمُونِ يَتحلَّقون بيْتي وهُمْ يَقولون:

«هاتِ الرَّجُلَ مَعَكَ وقُم مُسْرعًا لِأَميرِ المُؤْمِنينَ.»

فَخَرَجْتُ مَعَهُمْ، وتَوَجَّهْتُ إلى دارِ أَميرِ المُؤمِنينَ، فإذا هُوَ جالِسٌ يَنْتَظِر، فَقال:

«أين الرَّجُلُ؟» فَسَكتُّ!

قالَ: «ويْحكَ! أين الرَّجُلُ؟»

قلْتُ: «يا أميرَ المُؤمِنين....»

فقالَ: «للهِ عليَّ عَهْد لِئنْ ذكَرْتَ أنَّهُ هَرَبَ لَأضرِبَنَّ عنُقَكَ!»

قلت: «لا واللهِ، يا أميرَ المُؤمِنين، ما هَرَبَ، ولَكِن اسْمَعْ ما كانَ مِنْه ومِنّي، ثُمَّ شأْنُكَ وما تُريدُ مَعِي ومَعَهُ.»

قالَ: «قل.»

قُلْتُ: «يا أميرَ المُؤمِنين، كانَ مِنْ حَديثي مَعَهُ كَيْت وكَيت.» وقَصصتُ ما وقَعَ مِنَ الرَّجُلِ، وعَرَّفْتُهُ أنّ الرَّغْبَةَ في أنْ أرُدَّ جَميلَهُ، وأفدي عُنُقَهُ تَغْلِبُ حَقَّ أميرِ المُؤمِنين.

وقُلْتُ: «أنا وسَيدي ومَوْلاي أميرُ المُؤمِنين بَيْنَ أمرَيْنِ: إمّا أنْ يَصْفَحَ عَنّي؛ فأكونَ قَدْ وَفَّيتُ وكافَأتُ، وإمّا أن يقْتُلَني فأقيهِ بِنَفْسي. ها هُوَ كَفَني، يا أميرَ المُؤمِنين!»

فَلَمّا سَمِعَ المأمونُ الحَديثَ قالَ: «وَيْلَكَ: لا جزاكَ اللهُ عن نَفْسِك خَيرًا! أفَعَلَ مَعَكَ هذا الفِعْلَ دونَ أنْ يَعْرِفَ مَنْ أنْت، وتكافِئَهُ بَعْدَ المَعْرِفَةِ، وبعدَ فَضْلِهِ عَلَيْكِ؟ هَلّا عَرَّفْتني خَبَرَهُ فكنّا نُكافِئهُ عَنْكَ، ولا نُقَصِّر في وَفائِك لَهُ!»

قُلْتُ: «واللهِ، يا أَميرَ المُؤمِنين، إنَّهُ هَهُنا، وقَدْ حَلِفَ أَلَّا يَبْرَحَ مَكانَهُ حَتّى يَصِلَهُ خَبَرُ سَلامَتي، فَإنِ احْتجتُ إلى حُضورِهِ حَضَرَ!»

قالَ المَأمونُ:

«وهذِهِ مِنَّةٌ أَعْظَمُ مِنَ المِنَّةِ الأولى! اِرْكَبْ إلَيْه فَطَيِّبْ نَفْسَهُ، وهَدِّئ رُوعَهُ، وقُلْ له: أَميرُ المُؤمِنين يُريدُ أن يُجازيَكَ بِالإحْسانِ إحسانًا وفَضلًا.»

فَأَتَيْتُ وقُلْتُ لَهُ: «لِيزُلْ خَوْفُكَ، ولْيَذْهَبْ هَمُّكَ، فَأَميرُ المُؤمِنينَ قالَ كَذا وكَذا.»

ثم إنَّهُ حَضَر إلى مَجْلِسِ أميرِ المُؤمِنين، فَأكْرَمَ ضِيافَتَهُ وأَدْناهُ مِنْ مَجْلِسِه وخَلَع عَلَيْهِ مِنْ فَضْلِهِ، وأَمَرَ لَهُ بِصِلَةٍ مِنْ بَيْتِ المالِ، وأَوْصَلَهُ إلى دِمَشْقَ عَزيزًا مُكرَّمًا.

أَرْجو أَنْ تُعفِيَني

وَلِيَ الخَليفَةُ المَهْدِيُّ خِلافَةَ الدَّوْلَةِ العَبّاسيَّة، وكانَت بَغْدادُ عاصِمَةَ الخلافَة وحاضِرتَها، واخْتارَ المَهْديُّ لِدارِ الخِلافَةِ قاضِيًا اسْمُهُ عاقِبَةُ بْنُ يَزيد القاضي. وكانت مِهْنَةُ القَضاءِ قَدْ ثَقُلَتْ على الرَّجُلِ حَتّى استَأْذَنَ المَهْديّ في وقت الظَّهيرة وهو خالٍ، فَأَذِنَ له، ثم اسْتَأْذَنَهُ ثانِيَةً في أَنْ يُسَلِّمَ القِمطْرَ وهُوَ المَكانُ الَّذي تُصانُ فيه الكُتُبُ وقَضايا مَجْلِسِ الحُكم، وطَلَبَ مِنْه أَنْ يُعفِيَهُ مِنْ وِلايَةِ القَضاءِ.

ظَنَّ المَهْدِيُّ أَنْ يَكونَ بَعْضُ الأَولِياءِ في الأَمْصارِ المُخْتَلِفَةِ قَدْ عارَض القاضي وأثْقَلَ عَلَيه، فقَال لَهُ:

«يا قاضِيَ القُضاةِ إِنْ كانَ عارضَكَ أَحَدٌ نُنْكِرُ عَلَيْه فِعْلَهُ ونُجازيه، فَأَنْتَ مِنّا مَحَلُّ عَدْلٍ وثِقَةٍ وقَبولٍ.»

قالَ القاضي: «لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، يا أَميرَ المُؤمِنين.»

قال المَهْدِيُّ: «فما سَبَبُ استِعْفَائِكَ مِن القَضَاءِ، والكُلُّ يَسْعى إلى ذَلك؟»

قال القاضي: «يا أميرَ المُؤْمِنين تَقَدَّمَ لي خَصْمانِ مُنْذُ شَهْرٍ في قَضيَّةٍ مُشْكِلَةٍ، وكُلٌّ يَدَّعي بَيِّنَةً وشُهودًا، ويُدْلي بِحُجَجٍ تَحتاجُ إلى تَأَمُّلٍ وتَلَبُّثٍ وَتَثبُّتٍ، فَرَدَدْتُ الخَصْمَيْنِ لَعَلّي أُقَلِّبُ أَوْراقَ القَضِيَّةِ في ذِهْني، ثُمَّ أَشْغَلُ نَفْسي بِها بَحْثًا وتجْرِبةً، وقُلت: أُعْطي الخصْمَين وقتًا كَي يَصْطَلحا أو حتّى يصفوَ حالهُما، لعلَّ اللهَ يَلُمُّ شَمْلَهُما ويَجمعُ فُرقَتَهُما ويُصْلح بينهما! رَدَدْتُ الخَصْمَينِ، يا مَوْلاي، فَسَمِعَ أَحَدُهُما أني أُحِبُّ الرُّطَبَ، فعَمِدَ في وَقْتِنا هَذا وَهُو أَوَّلُ أوْقاتِ الرُّطبِ - فَجَمَعَ رُطبًا لا يَتَهيَّأُ الآنَ جَمْعُ مِثْلِهِ، يا أميرَ المُؤْمِنينَ، وما رَأَيْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّه رَشا بَوَّابي بِدَراهِمَ على أَنْ يُدْخِلَ الطَّبَقَ عَلَيَّ. فَلَمَّا أَدْخَلَهُ عَلَيَّ أَنْكَرْتُ ذَلِكَ، وطَرَدْتُ بَوّابِي، وأَمَرْتُ بِرَدِّ الطَّبقِ، فَرُدَّ عَلَيْهِ.

«ومَرَّ وَقْتٌ، يا مَوْلاي، حَتّى مَثُلَ الخَصْمانِ أمامي في دارِ القَضاءِ، وكُنْتُ قَدْ أَعْدَدْتُ أَوراقي، واسْتَخَرْتُ اللهَ في حُكْمي، وتَبَيَّنْتُ حُكْمي، وتَثَبَّتُّ مِنْهُ تَثَبُّتًا مُحْكَمًا، فَوَاللهِ، يا أَميرَ المُؤْمِنينَ

ما تَساوَيا في عَيْني ولا قَلْبي، فَقَد كُنْتُ أميلُ ناحِيَةَ صاحِبِ الرُّطَبِ.

«فهذا حالي يا أَمِيرَ المُؤمِنينَ ولَمْ أَقْبَل، ورَدَدْتُ الرُّطَبَ، فَكَيْفَ يَكونُ حالي لَوْ قَبِلْتُ، ولا آمَنُ أَنْ تَقَعَ عَلَيَّ حيلَةٌ في دِيني، وقد فسَد النّاسُ، فَأَقِلْني، يا أَميرَ المُؤمِنينَ، أَقالَكَ اللهُ، وأَعْفِني عَفا اللهُ عَنْكَ.»

فَأَطْرَقَ أَميرُ المُؤمِنينَ قَلِيلًا ثُمَّ قالَ:

«ومِنْ أجل ذَلِكَ وُلِّيتَ القَضاءَ، واعْدِلوا وذَلِكَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوى!»

في
مَجْلِس القَضاء

كانَ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قاضيًا على الكوفَةِ في زَمَنِ الخَليفَةِ المَهْدِيِّ، وكانَ مُوسى بْنُ عيسى والِيَ الخَليفَةِ على المَدينَةِ. وحَدَثَ أَنْ أَتَتِ امْرَأَةٌ إلى شَريكٍ وهُوَ في مَجْلِسِ الحُكْمِ، فقالت:

«أَنا بِاللهِ ثُمَّ بِالقاضي أَلوذُ!»

سَأَلَها: «مَنْ ظَلَمَكِ؟»

قالَتْ: «الأَميرُ موسى بْنُ عيسى عَمُّ أَميرِ المُؤْمِنينَ؛ كانَ لي بُسْتانٌ على شاطِئِ الفُراتِ، فيه نَخْلٌ وَرِثْتُهُ عَنْ أَبي، وقاسَمْتُ إِخْوَتي، وبَنَيْتُ بَيْني وبَيْنَهُمْ حائِطًا، وجَعَلْتُ فيه رَجُلًا يَحْفَظُ النَّخْلَ ويَقومُ بِهِ، فاشْتَرى الأَميرُ موسى بْنُ عيسى مِنْ جَميعِ إِخْوَتي، وساوَمَني ورَغَّبَني فَلَمْ أَبِعْهُ. فَلَمّا كانَتْ هَذِهِ اللَّيْلَةُ بَعَث

بِخَمْسِمائةِ غُلامٍ، فاقْتَلعوا الحائِطَ، فَأَصْبَحْتُ لا أَعْرِفُ مِنْ نَخْلي شَيْئًا، واخْتَلَطَتْ أَرْضي بِأَرْضِ إِخْوَتي، واخْتَلَطَ نَخْلي بِنَخْلِهِمْ.»

فَقالَ القاضي شَريكٌ لِغُلامِهِ: «امْضِ إلى بابِ موسى بنِ عيسى وادْعُهُ إلى أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْنا، ويُنَفِّذَ أَمْرَنا.»

فَلَمّا جاءَ الغُلامُ إلى الأَميرِ موسى بْنِ عيسى كَبُرَ عَلَيْهِ الأَمْرُ، وتَعالَتْ نَفْسُهُ أَنْ يَأْتِيَ إلى صاحِبِ القَضاءِ، حَتّى دَعا صاحِبَ الشُّرْطَةِ وأَمَرَهُ بِالذَّهابِ إلى القاضي وقالَ لَهُ:

«قُلْ لِلْقاضي، الأَميرُ يَقولُ لَكَ: يا سُبْحانَ اللهِ؛ ما رَأى الأَميرُ أَعْجَبَ مِنْ أَمْرِكَ! امْرَأَةٌ ادَّعَتْ دَعْوى لَمْ تَصِحَّ فَتُرْسِلُ في طَلَبِهِ؟»

فَلَمّا ذَهَبَ صاحِبُ الشُّرْطَةِ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَي القاضي وأَفْرَدَ رِسالَتَهُ، قالَ القاضي لِغُلامِ المَجْلِسِ:

«خُذْ بِيَدِ صاحِبِ الشُّرْطَةِ فَضَعْهُ في الحَبْسِ!»

وبَلَغَ موسى بْنَ عيسى الخَبَرُ، فَوَجَّهَ الحاجِبَ إِلَيْهِ، وقالَ لَهُ: «رَسولٌ أَدّى رِسالَةً، فَأَيُّ شَيْءٍ عَلَيْهِ؟»

فَقالَ شَريكٌ: «اذْهَبوا بِهِ إلى رفيقِه في الحَبْسِ.» فَحُبس.

احْتارَ الأَميرُ كثيرًا في فِعْل القاضي حَتّى جَمَعَ جَماعَةً مِنْ وُجوهِ الكوفَةِ، وقالَ لَهُمْ:

«أَبْلِغوا القاضي شريكًا السَّلامَ، وأَعْلِموهُ أَنَّهُ اسْتَخَفَّ بي، وأَنّي لَسْتُ كالعامَّةِ.»

فَمَضَوْا إِلَيْهِ وهُوَ جالِسٌ في مَسْجِدِهِ بَعْدَ صَلاةِ العَصْرِ، فأَبْلَغوهُ الرِّسالَةَ. فَلَمّا انْقَضى كَلامُهُمْ، قالَ لَهُمْ:

«ما لي أَراكُمْ جِئْتُموني في جَمْعٍ مِنَ النّاسِ فَكَلَّمْتُموني؟ مَنْ ها هُنا مِنْ فِتْيانِ الحَيِّ؟»

فَأَجابَهُ جَماعَةٌ مِنَ الفِتْيانِ، فَقالَ «لِيأْخُذْ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ بِيَدِ رَجُلٍ فَيَذْهَبَ بِهِ إلى الحَبْسِ، ما هُمْ إِلّا فِتْنَةٌ وجَزاؤُهُمُ الحَبْسُ.»

قالوا لَهُ: «أَجادٌّ أَنْتَ؟»

قالَ: «نَعَمْ! حَتّى لا تَعودوا لِرِسالَةٍ ظالِمَةٍ.»

فَرَكِبَ موسى بْنُ عيسى في اللَّيْلَةِ إلى بابِ السِّجْنِ، وفَتَحَ

البابَ، وأَخْرَجَهُمْ كُلَّهُمْ. فَلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ، وجَلَسَ شَريكٌ لِلْقَضاءِ جاءَهُ السَّجّانُ فَأَخْبَرَهُ، فَقالَ:

«واللهِ، ما طَلَبْنا أَمْرَ القَضاءِ مِنْهُمْ، ولَكِنْ أَكْرهونا عَلَيْهِ، ولَقَدْ ضَمِنوا لَنا فيهِ العِزَّةَ والكَرامَةَ إِذا تَقَلَّدْناهُ.»

ومَضى القاضي مِنَ الكُوفَةِ مُتَوَجِّهًا إلى بَغْدادَ دارِ الخِلافَةِ، وبَلَغَ الخَبَرُ إلى موسى بْن عيسى، فَرَكِبَ في مَوْكِبِهِ، فَلَحِقَهُ، وجَعَلَ يُناشِدُهُ اللهَ، ويَقولُ:

«يا أَبا عَبْدِ اللهِ، تَثَبَّتْ! انْظُرْ إِخْواني، أَتَحْبِسُهُمْ؟»

قالَ القاضي: «نَعَمْ، لأَنَّهُمْ مَشَوْا لَكَ في أَمْرٍ لَمْ يَجُزْ لَهُم المَشْيُ فيهِ، ولَسْتُ بِبارِحٍ حَتّى يُرَدّوا جَميعًا، وإِلّا مَضَيْتُ إلى أَميرِ المُؤْمِنينَ المَهْدِيِّ فاسْتَعْفيتُه مِمّا قَلَّدَني.»

فَأَمَرَ موسى بِرَدِّهِمْ جَميعًا إلى الحَبْسِ، فَقالَ القاضي: «بَقِيَ أَنْ تَمْثُلَ أَنْتَ أَمامي في مَجْلِسِ القَضاءِ.»

فامْتَثَلَ موسى بْنُ عيسى لِلْأَمْرِ وأُدْخِلَ المَسْجِدَ، وجَلَسَ في

مَجْلِسِ القَضاءِ، فَجاءَتِ المَرْأَةُ المُتَظَلِّمَةُ فَقالَ لَها القاضي:

«هَذا خَصْمُكِ قَدْ حَضَرَ.»

فَقال موسى وهُوَ مَعَ المَرْأَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ: «قَبْلَ كُلِّ أَمْرٍ، أَنا قَدْ حَضَرْتُ، وأولَئِكَ يَخْرُجونَ مِنَ الحَبْسِ.»





فَقالَ شَريكٌ: «أَمّا الآنَ فَنَعَمْ! أَخْرِجوهُمْ مِنَ الحَبْسِ، وأَنْتَ ما تَقولُ فيما تَدَّعيهِ هَذِهِ المَرْأَةُ؟»

قال: «صَدَقَتْ.»

قالَ القاضي: «تَرُدُّ ما أَخَذْتَ مِنها، وتَبْني حائِطَها سَريعًا كَما كانَ.»

قال: «أَفْعَلُ ذَلِكَ.»

قالَ القاضي لِلْمَرْأَةِ: «أَبَقِيَ لَكِ عَلَيْهِ دَعْوى؟»

قالَتْ: «لا، وبارَكَ اللهُ عَلَيْكَ وجَزاكَ خيرًا.»

قالَ لَها: «قومي.» فَقامَتْ مِنْ مَجْلِسِهِ.

فَلَمّا فَرَغَ القاضي شَريكٌ قامَ مِنْ مَجْلِسِه، وأَخَذَ بِيدِ موسى بْنِ عيسى، وأَجْلَسَهُ في مَجْلِسِه، وقالَ:

«السَّلامُ عَلَيْكَ أَيُّها الأَميرُ! أَتَأْمُرُ بِشَيْءٍ؟»

فَقالَ: «بِأَيِّ شَيْءٍ آمُرُ؟»

وضَحِكَ، فَقالَ لَهُ شَريكٌ:

«أَيُّها الأَميرُ، ذاكَ الفِعْلُ حَقُّ الشَّرْعِ، وَهذا القَوْلُ الآنَ حَقُّ الأَدَبِ.»

فَقام الأَميرُ وانْصَرَفَ إلى مَجْلِسِهِ.

اليَنابيع تتفجّر من التُّراث العربيّ الأصيل، ومِنَ السِّيرِ الشَّعبيّةِ الغَنيّةِ، ومِنَ الحِكاياتِ الشَّعبيةِ العَربيّةِ؛ لتُصوِّرَ نماذجَ مُضيئةً مِن تُراثِنا، وتعرِض قِيمًا مُشرقةً في حياتِنا: تَمزِج بين الجِدِّ، والفُكاهةِ في لُغةٍ هادِئةٍ راقيةٍ: لا تعلو فتعوق القارئ وتصدّه ولا تسفُّ فتهبط بذوقِه ومستواه، وإنما تمتّع وجدانَه وقلبه، وتُثري فِكرَه وعقلَه.

اليَنابيع

١ – سيف الإحسان وقصص أخرى
٢ – حبات العقد وقصص أخرى
٣ – الباحث عن الحظ وقصص أخرى
٤ – مشورة قصير وقصص أخرى
٥ – الشعرة الذهبية وقصص أخرى
٦ – عنترة بن شداد: مولد البطل
٧ – عنترة بن شداد: عبلة والصبي المقاتل
٨ – عنترة بن شداد: السيف والكلمات
٩ – عنترة بن شداد: يوم عنترة
١٠ – رحلة السندباد المجهولة
١١ – مزحة صيف وقصص أخرى
١٢ – الدهان السحري وقصص أخرى
١٣ – كرسي السلطان
١٤ – بدر البدور
١٥ – حكاية الفتى العربي وقصص أخرى
١٦ – قوت القلوب
١٧ – الخاتم السحري
١٨ – بائع السعادة وقصص أخرى
١٩ – رجع بخفي حنين وقصص أخرى
٢٠ – العطار والعقد وقصص أخرى
٢١ – نسمة الربيع
٢٢ – مرآة الخير وقصص أخرى
٢٣ – سر الجدة ومعركة طبيب
٢٤ – أميرة الحسن والجمال
٢٥ – من ألاعيب هلال
٢٦ – ذو الإصبع وبناته
٢٧ – وليمة الأسد
٢٨ – سباق بين غرابين

مكتبة لبنان ناشرون
زقاق البلاط ص.ب: ٩٢٣٢ – ١١
بيروت – لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

ISBN 977-16-1285-9
9 789771 612858